
دار الشروق
إعادة الاعتبار للرئيس السادات
د . سعد الدين إبراهيم

إعـادة الاعـتـبـار للـرئيس الســادات

الطبعة الأولى
١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م

القاهرة . ١٦ شارع جواد حسني - هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٣٤٨١٤
برقيا : شروق - تلكس : 93091 SHROK UN
بيروت . ص . ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣
برقيا : داشروق - تلكس : SHOROK 20175 LE

د. سعد الدين إبراهيم

إعــادة الاعتبــار للرئيس السادات

دار الشروق

مقـــدمة

ماذا يعني إعـادة الإعتبار إلى رئيس مصر الـراحل محمد أنـور السادات ؟ ومن الذي يقوم برد الاعتبار هذا ؟ ومـا قيمة رد الاعتبار ، وما قيمة من يرد الإعتبار؟ .

هذه أسئلـة من حق القارئ العربي أن يحصل على إجابـات عليها من أول سطور هذا الكتاب . وهي بالتالي واجب على الكاتب .

وبـدايـة كان ومـا يـزال للـرئيس السـادات معجبون عـديـدون في مصر والخارج منذ تولى رئاسـة الدولة المصرية فى أعقـاب رحيل الرئيس جمال عبد النـاصر . وهؤلاء ليسـوا في حـاجة إلى أن يسمعـوا أو يقـرأوا لمن يقوم بـرد الاعتبار للـرجل . . وإن كانوا بالطبع سيبتسمـون إبتسامة الرضـا ، ولسان حالهم يردد «ألم نقل لكم ذلك طوال الوقت !» .

والرئيس السادات نفسه بعد أن رحل عن عـالمنا ، لن يعنيه بالطبع شيء مما يرد في هذا الكتاب . ولكن ربما يكون بعض مـا يرد فيه تخفيف عن لوعة ذويه، الذين فجعوا باغتياله كشخص يوم ٦/ ١٠/ ١٩٨١ ؛ ثم فجعوا أكثر باغتياله كشخصية لعدة سنوات بعد ذلك .

والأهم من هـذا وذاك ، هـو أن القصـد من هـذا الكتـاب ليس تمجيـداً للرئيس الراحل ، وليس دفاعاً عن كل سياساته وقراراته وممارساته . فهناك الكثير من هـذه السياسـات والقـرارات والممارسات التى يظل لهذا الكـاتب انتقادات أو تحفظات عليها .

ولكن هـذا الكتـاب ينطـوي على إنصـاف لبعض هـذه السيـاســات

والقرارات، التي كان هذا الكـاتب وغيره قد وقفوا منها موقفاً شـديد النقد والمعـارضة في حيـاة الرئيس السـادات ، وبعد أن كشفت السنـوات العشر التاليـة لرحيله أنها كـانت تنطوي على نظـرات صحيحة أو ثاقبـة . وفي هذا الإنصاف فنحن نمارس نقداً ذاتيا من ناحية ، ونرد الاعتبار لسيرة الرجل من ناحية ثانية ، ونرسي تقليداً أخلاقياً في الحيـاة العربية العامة من ناحية ثالثة ، ألا وهو تأكيد أن «الرجوع إلى الحق فضيلة» .

«وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون»

سعد الدين إبراهيم

المقطم ـ القاهرة ـ ٣/ ١٢/ ١٩٩١

القسم الأول
حوار مع الرئيس أنور السادات

١ ـ قصة لقائين
٢ ـ خواطر عن السادات وأمريكا
٣ ـ السادات حَول العرب
٤ ـ السادات والاسلاميون والأقباط
٥ ـ السادات حول قوى المعارضة المصرية
٦ ـ مع السيدة جيهان السادات

حوار مع الرئيس أنور السادات

١ ـ قصة لقائين

اختلف كثيرون مع عديد من سياسات وسلوكيات الرئيس الراحل أنور السادات أثناء سنوات حكمه . وباستثناء قرار حرب أكتوبر ، الذى يوجد شبه اجماع مصرى وعربى على شجاعته وصوابه ، فإن كل سياسة أو قرار آخر للرئيس الراحل قد أدى إلى شق الصف المصرى والعربى بين مؤيدين ومعارضين . ويمثل شهر أكتوبر قمة المجد وقمة المأساة فى السيرة السياسية والشخصية لأنور السادات . فقد كان يوم ٦ أكتوبر ١٩٧٣ هو قمة المجد للرجل ؛ وكان يوم ٦ أكتوبر ١٩٨١ هو قمة المأساة . وقد مرت ثمانية عشر عاماً على قمة المجد ، وعشر سنوات على قمة المأساة . وكلاهما مدة كافية لاعادة النظر فى مجمل توجهات الرئيس الراحل ، بقدر أكبر من الموضوعية والتجرد . فقد هدأت نسبياً العواطف والمشاعر الملتهبة التى فجرتها سياسات الرجل فى وقتها . وأصبح من الممكن الآن ممارسة النقد الهادئ لسياسات الرجل ، وممارسة النقد الذاتى من أولئك الذين اختلفوا مع هذه السياسات فى حينها . ومن هذا المنطلق أقوم فى هذه المقالات بممارسة نقد ذاتى ، حيث إننى كنت من بين الكثيرين الذين اختلفوا مع هذه السياسات ، وخاصة سياسة التحالف مع الغرب ، وسياسة المصالحة مع إسرائيل . وينطوى هذا النقد الذاتى فى نفس الآن على إعادة الاعتبار للرئيس أنور السادات .

ولكنى أبـدأ هذه المقـالات بخواطـر شخصيـة عن مقابلتين مع الـرئيس الراحل، يفصلهما خمسة عشر عـاماً . كانت الأولى أيام كنت شـاباً فى أواخر العشرينيات ، وتمت على شاطـئ الباسفيكى فى الولايات المتحـدة ، والثانية أيام كنت كهـلاً فى أوائل الأربعينيات ، وتمت على شاطئ البحـر المتوسط فى الاسكندريـة . واترك جانبـاً فى تسجيل خواطرى عن هـاتين المقابلتين كثيراً من التفصيلات التى قد تمس أشخـاصاً آخرين (أحياء أو فى رحـاب الله عز وجل). وهـدفى من البـدء بهذه الخواطـر هـو أن تكـون ، أولاً ، شهـادات للتاريخ ؛ وأن تكـون ، ثانياً ، اعترافـا ببعض تحيزاتى ضد الـرئيس الراحل وقت هذين اللقائين ؛ وأن تكون ثالثاً ، مقـدمة لبقية هذه المقالات فى إعادة تقييم الحقبة الساداتية .

اللقاء الأول

التقيت بالـرئيس أنور السادات لأول مرة فى عام ١٩٦٦ ، أيـام كنت أنا طالبـاً فى الدراسات العليـا ورئيساً لمنظمة الطلبة العـرب بالولايـات المتحدة وكندا، وكان هو رئيساً لمجلس الأمة المصرى (مجلس الشعب الآن) ، وجاء لزيارة أمريكا بدعوة من الكونجرس ، الذى أعد له برنامجاً حافلاً للتجول فى عدة مدن رئيسية ، إلى جـانب واشنطن . وطلب الرئيس السادات أن يجتمع بالطـــلبة العرب فى هـــذه المدن . وكـرئيس لمنظمـة الطلبة العـرب ، فقد حضرت بعض هذه اللقـاءات . وكانت رحـــلة اصطحابـه من الفندق إلى مكـان الاجتماع هى أول فــرصـة لـلاقتراب من الـرجل وجهـا لـوجـه ، وللحديث المنفرد معه .

وحين أعود إلى مـا سجلته من ذكـريات حـول هذا اللقـاء الأول ، أجد انطباعين بارزين . الإنطباع الأول هو بشاشة الرجل ودفئه وروحه المرحة ، التى يشعـر المرء معهـا بـالألفة وعـدم الكلفـة . وكـان ذلك إنطبـاع إيجابى

للغاية. كما لاحظت وقتها انه متأنق للغاية ، وتفوح منه روائح العطر الباريسى الرجالي. واستغربت ذلك وقتها ، لاعتقادى الساذج ان «الثوار» لا يهتمون عادة بمظهرهم كل هذا الاهتمام ؛ وهو أحد ثوار يوليو ١٩٥٢ .

أما الانطباع الثانى فكان الانبهار الواضح للرجل بالولايات المتحدة وبكل ما هو أمريكى وقد أفزعنى ذلك للغاية . فقد كان قد مر على بدء زيارته عدة أيام ، بينما كان قد مر على اقامتى هناك عدة سنوات . وكان عقد الستينيات فى الولايات المتحدة هو سنوات الغليان والاحتجاج بين الشباب الأمريكى على سياسات أمريكا الرسمية الداخلية والخارجية . وكنا نحن الطلبة العرب ، كجزء من الحياة الجامعية الأمريكية فى ذلك الوقت ، متأثرين بثورة الشباب الأمريكى على حكومتهم ، ناهيك عن أسبابنا العربية الخاصة للأحتجاج على السياسات الامريكية نحو مصر والوطن العربى والعالم الثالث عموماً . هذا فضلاً عن أنه بمرور السنوات على اقامة الوافد الجديد إلى الولايات المتحدة ، فإن انبهاره بذلك البلد يتلاشى تدريجيا ، ويحل محله تقييم متوازن لمزايا وعيوب المجتمع الأمريكى .

لذلك فقد كان معظم الحديث فى هذا اللقاء الأول مع الرئيس أنور السادات هو بمثابة سجال تصحيحى . فكلما أبدى إعجابه الشديد بجانب من جوانب المجتمع الأمريكى ، رددت عليه بابراز أحد الجوانب السلبية عن «امريكا الأخرى» : العنصرية ، والأربعين مليونا (وقتها) الذين يعيشون تحت خط الفقر ، وثقافة الحرب التى تغذيها المؤسسة العسكرية - الصناعية الأمريكية ، والمادية المفرطة ، والسباق الاستهلاكى المحموم . . . . وما إلى ذلك .

وكان الرئيس السادات يهز رأسه بعد كل فقرة نقد ، أو يقول «معك

حق!» ثم سرعان مـا يبدى إعجابه بشـىء أمريكى آخر ، فأعود أنـا كتلميذ مجتهد وبجديـة بالغة لتفنيد مـا كان الرجل معجباً بـه . ولم أدرك وقتها ما إذا كان الرجل يستمع حقيقة لما كنت أقول ، أم أنه كان يجاملنى أو يسايرنى بهز رأسه ، أو بكلمتى «معك حق» .

وسرعان ما نسيت تأثير هذا اللقاء فى زحمة الأحداث المتلاحقة فى امريكا والشرق الأوسط . . . خـاصـة وأن أنور السـادات لم يكن فى ذلك الـوقت (١٩٦٦) شخصية مركزية فى صناعة القرار المصرى ، رغم رئاسته للمجلس النيابى ، وعضويته فى مجلس قيادة ثورة يوليو ١٩٥٢ . ولم اتذكر وقائع هذا اللقاء الأول مرة أخرى إلا بعد الرحيل المفاجئ للرئيس جمال عبد الناصر فى أواخر سبتمبر ١٩٧٠ ، وما نقلته وكالات الأنبـاء لنا فى الولايات المتحدة ، بتولى أنـور السادات رئاسة الجمهـورية مؤقتـاً ، ثم ترشيحه بـواسطة مجلس الأمـة ليكـون رئيسـا لمصر . . . وإذكـــر وقتهـا أن زوجتى وجـدتنى واجما ومستغرقا فى التفكير بعد سماع النبأ . . . ولما استفسرت عن سبب الوجوم ، تمتمت ببضع كلمات ، وكأننى أتحدث إلى نفسى ، مفادها «أنـه إذا كان هناك من سيجعل مصر تنحاز إلى أمـريكا مائة وثمانين درجة . . فإنـه سيكون هذا الرجل . . . » وأذكر أن زوجتى استنكرت وقتها تلك النبوءة، بعبارة مفادها «كيف تقول ذلك عن رجل تؤكد نفس وكـالات الأنباء انه رفيق نضال عبد الناصر ، واحد الثوار الأوائل؟ . ولم أرغب وقتها أن أقص عليها انطباعات لقائى الأول ، منذ أربع سنوات ، مع أنـور السادات ، ومدى ما أحسست فيـه من انبهار الـرجل بـالـولايات المتحـدة . ومع ذلك تمنيت وقتهـا أن لا تصدق نبوءتى ، وأن يكون استنكار زوجتى فى محله .

اللقاء الثانى . . . والأخير

بعـد خمسـة عشر عامـاً ، وبالتحـديد فى آخـر شـهر أغسطس ١٩٨١ ،

كـان لقـائى الثـانى والأخـير بـالـرئيس أنـور السـادات فى استراحتـه بالأسكندرية .

خلال هذه الأعوام الخمسة عشر كـانت قد مرت بمصر والوطن العربى والعالم أحداث جسام ، أهمهـا حربين مع إسرائيل ، وصلح معها ، ورحيل عبـد الناصر وتـولى السـادات لمقاليـد السلطـة ، وحـرب أهلية فى لبنـان ، ونشوب ثـورة إسلامية فى إيـران ، ثم حرب بين العراق وإيـران ، وإنقسام عربى غير مسبـوق بسبب كامب ديفيـد ، فـ «انفتـاح اقتصادي» فى مصر ، وقطيعـة مع الاتحاد السـوفييتى ، وتقارب شـديـد مع الغـرب والولايـات المتحدة ، وانفجارات إجتماعية وطائفية داخلية فى مصر .

بل وكان صيف عام ١٩٨١ ، الذى تم اللقاء قرب نهايته ، صيفاً ساخناً للغاية . فـفى بداية ذلك الصـيف وقعـت أحـداث طـائفية قبيحـة فى منطـقة الـزاوية الحمـراء بـالقاهـرة ؛ وشنت إسرائيل غارتين جـويتين ، أحدهما على المفاعل النووى العراقى قـرب بغداد والثانية على حى الفكهانى المكتظ بـالسكـان فى مـدينـة بيروت . . . ولأن هـذا السلـوك العـدوانى الإسرائيلى جـاء بعـد يـومين فقط من اجتماع بين الـرئيس السـادات ورئيس وزراء اسرائيل منـاحيم بيجين فى شرم الشيخ ، فقـد كـان غضب الشـارع المصرى خـاصـة والشـارع العربى عـامـة غضبـاً شـديـداً . . . وأوحى للمصريين وقتها إما أن الرئيس السادات كان متواطئاً مع مناحيم بيجين ، أو أن إسرائيل قد غـررت به وخـدعته إمعـاناً فى إحـراجه مع شعبـه ومع أمته العـربيـة . كذلـك شهد نفس صيف ١٩٨١ زيـارة للـرئيس السـادات إلى الولايات المتحدة ، حيث اجتمع لأول وآخر مـرة مع رئيسها الجديد رونالد ريجان . كما شهد نفس الصيف مؤتمر قمة عربى فى فاس ، عرضت فيه خطة الأمير فهـد (وكان وقتهـا وليا للعهـد فى السعوديـة) لتسويـة صراع الشرق الأوسط .

*** الاستعداد للقاء**

أخبرت بموعد اللقاء قبله بيومين (يوم خميس) ليكون ظهر السبت التالي، دون معلومات عن سبب اللقاء، أو موضوعه، أو مدة اللقاء . . .

وأخذاً بالأحوط، وفى غياب هذه المعلومات، حاولت أن أخمن ما يمكن أن يدور الحديث حوله . . . واسترجعت الأحداث التى وقعت فى الشهور القليلة السابقة، والقضايا التى تشغل الرأى العام المصرى والعربي، والتى ذكرتها فى الفقرة السابقة . كما كنت قد نشرت مقالاً فى صحيفة الأهرام فى ذلك الصيف وفى أعقاب الغارة الاسرائيلية على المفاعل النووى العراقى، أتنبأ فيه باحتمال هجوم إسرائيلى كاسح على أحد الجبهات العربية خلال عام، وأطالب بمصالحة عربية، استعداداً لهذا الإحتمال (وهو ما وقع فعلاً فى يونيو ١٩٨٢ باحتياج إسرائيل للبنان) .

وقضيت يومى الخميس والجمعة فى إعداد مذكرات مختصرة حول هذه الموضوعات . وحرصت على ألا تتجاوز أى مذكرة حول أى موضوع أكثر من صفحتين مكتوبتين . فقد شاع عن الرئيس السادات أنه لا يحب قراءة التقارير أو المذكرات المطولة .

*** مفاجأة صباح اللقاء**

كان الموعد المقرر للقاء مع الرئيس هو الثانية عشر ظهر السبت . واستيقظت مبكراً صباح ذلك اليوم استعداداً للرحلة بالسيارة من القاهرة إلى الاسكندرية . وأثناء تناولى للإفطار قبيل الرحلة طالعت عناوين الصحف . ووقع نظرى على خبر فى الصفحة الأولى من الأهرام، مفاده أن الرئيس السادات معتكف فى استراحته بالأسكندرية، ولن يقابل أحداً، لأنه منكب على اعداد «خطاب تاريخي» سيلقيه على الأمة بعد ذلك بعدة أيام (٥ سبتمبر ١٩٨١) .

وأصابتنـي الحيرة والارتباك عما إذا كـان «هذا الاعتكـاف وعدم مقـابلة أحد ، يعنى أن لقـائى المنتظـر بالـرئيس قـد ألغي . واستشرت زوجتى فى الأمـر . فأقترحت أن أسـافــر إلى الأسكنـدريـة على أى الأحـوال ، عمـلاً بالتقاليد فى «البلاد الراقية» ، وهو أنـه عندما يطلب رئيس الدولة رؤية أحد المواطنين ، فإن واجب هذا المواطن أن يستجيب ، حتى إذا قـرر الرئيس أن يلغى المقابلة . . وأنه من المحتمل ، رغم خبر الاعتكاف، أن يكون الرئيس يتـوقع ذهابى إلى إستراحتـه بـالأسكندريـة . . . وفى هـذه الحالة فإن عـدم الذهاب ينطوى على سلوك غير لائق من مواطن تجاه رئيس بلده .

توكلت على الله وذهبت إلى الأسكنـدرية . . . وأنا غير معول على إتمام المقابلة . . . ولدهشتى الثانية صباح نفـس اليوم وجدت عند بوابة الحراسة لاستراحة الرئيس اسمى ، وما يفيد أن الرئيس سيرانى .

* استقبال غاضب

كانت هـذه هى المرة الأولى التى أتوجـه فيها إلى استراحة صيفيـة لرئيس دولـة . . . وكنت أتصور أن «الاستراحـة» خـلافاً «للقصر الـرئاسي» ، هى بيت صيفى صغير . . . وهالنى أن الاستراحـة هى مبنى ضخم ، وتحيط به حـدائق شاسعـة . . . وعنـد باب هـذا المبنى استقبلنى أحـد المساعـدين ، وأدخلنى إلى غرفة استقبال . . . وبعد دقـائق أقبلت حرم الرئيس ، السيدة جيهـان السادات ، ورحبت بى تـرحيبـاً حاراً . . . وبعـد تبادل التحيـات الاحتفاليـة ، ذكرت أن الرئيس فى حـاجة إلى من يتحدث إليـه عن «أحوال البلد» بصراحة وموضوعيـة . . . وأنها ترجو منى أن أفعل ذلك حرصاً على مصلحة الـوطن . . وغابت الابتسامـة واكتسى وجهها بالجديـة وهى تقول هـذه الكلمات . . . وكـانت نبرات صوتها تـوحى بـاخـلاص عميق يختلط بهمـوم ثقيلة . . . ثم تـوجهنـا سـوياً ، وبصحبـة صـديقة لها ، إلى خـارج

المبنى . . . وإلى حيث كان يجلس الرئيس السادات وحده تحت شمسية بلاج ضخمة قرب الشاطئ ، وينظر إلى أمواج المتوسط ومياهه الشديدة الزرقة فى ذلك اليوم .

وما أن نبهته السيدة جيهان بأننى «موجود معهم» ، حتى التفت الرئيس وبادرنى بصاعقة كلامية عالية النبرات مفادها أنه يعرف «أننى أكرههم . . . وأننى سليط اللسان . . . وأننى أشوه صورتهم فى الداخل والخارج بما أقوله وأنشره . . . » ولم أكن مستعداً بالمرة لهذه القذائف الرئاسية . . . فلقائى السابق بالرجل منذ خمسة عشر عاماً كان ودوداً ، رغم الاختلاف فى الآراء . . . كذلك كان ترحيب السيدة جيهان بى قبل خمس عشرة دقيقة رقيقا وكريماً للغاية . . . وتدخلت السيدة جيهان بسرعة لتذكر الرئيس بأننى «ضيفهم . . . وإن الواجب أن يدعونى للجلوس أولاً ، على الأقل . . . » . فأستدرك الرئيس السادات ، وهو ما يزال مقطب الجبين ، وأشار على بالجلوس . . . وسادت لحظة وجوم ، حاولت أن استجمع فيها رباطة الجأش ، وأبطئ من دقات القلب المتسارعة ، وغليان الدم الفائر ، واصطنعت إبتسامة قسرية ، وقلت للرئيس بما يشبه الدعابة «أشكركم على هذا الاستقبال الكريم ، رغم قراركم بالإعتكاف للتفكير فى جلائل الأمور . . . » فرد الرجل وعلى وجهه ابتسامة مغتصبة «ها . . . . . وتهزل مع رئيس جمهوريتك أيضاً !» . . . ومع ذلك بادرت بالسؤال «هل لمواطن متواضع مثلى أن يستفسر عن حيثيات ما وجهه له رئيس جمهوريته من إتهامات؟» .

قال الرئيس ، وهو أكثر هدوءاً ، «هذا ما أسمعه من أولادنا فى الجامعة الأمريكية . . . وهذا ما سمعته عن الكلام الفارغ الذى تنشره لك الصحف والمجلات فى الخارج» .

ودخلت مع الرئيس فى حديث امتد حوالى ثلاث ساعات ، تخللته عدة

عـواصف كلاميـة (من جـانبـه طبعاً) ، مثل العـاصفـة التى استقبلنى بها . ولكن مع ذلـك الـوقت كنت قـد تعـودت على استقبـال العـواصف الرئاسية . . . وكـان عزائى هـو أن الرجل كان تواقاً للاستماع والحديث ، وان السيـدة جيهان كـانت تتدخل بكلماتها النـاعمة لتبـديد التـوتر بعـد كل عاصفة .

٢ـ خواطر عن السادات وأمريكا

رغم البداية العاصفة للقائى بالرئيس الراحل أنور السادات ظهر يوم ٣١ أغسطس ١٩٨١ باستراحته بالأسكندرية ، ورغم تعدد نوبات الغضب خلال الساعات الثلاث التى استغرقها هذا اللقاء ، إلا أن المقابلة انتهت نهاية ودية ، أصر الرئيس بعدها أن أمكث لتناول الغداء مع أسرته ، وإن كان هو نفسه لا يتناول هذه الوجبة لاعتبارات «الرجيم» الذى يتبعه .

حيثيات الاتهام بالعداوة

بادرنى الرئيس فى اللحظة الأولى للمقابلة بأنه يعرف أننى «أكرههم ، وأشوه صورتهم بما أقوله لطلابى وما أكتبه وأنشره فى الخارج» . ولما استفسرت منه عن حيثيات هذا الاتهام الشخصى الخطير . . أخبرنى بأن ذلك هو ما ينقله له «أبناؤه» فى الجامعة الأمريكية (حيث أقوم بالتدريس) . فلما أجبته بأننى لا أذكر أن أيا من «أبنائه» قد درس معى . . . رد الرئيس بأن هذا صحيح ، ولكنهم سمعوا ذلك من أصدقائهم الذين يدرسون معى . . فلما أبديت أسفى أن يكون حكم الرئيس على أحد المواطنين هكذا مبنيا على كلام أصدقاء أبنائه ، سارعنى هو بسؤال مباشر «دعنا من كلام أصدقاء أولادنا . . . . ألا يبقى حقيقياً انك تكرهنا؟» .

قلت «يا سيادة الرئيس هناك فارق كبير بين الكراهية والاختلاف فى الرأي . . إن الكراهية تنطوى على أشياء ذاتية أو شخصية . . أما الاختلاف فى الرأى فهو مسألة اجتهاد فى القضايا العامة . . . وصحيح اننى اختلف مع عدد من سياسات النظام . .» .

قال الرئيس بشىء من الغضب «إيه حكاية «النظام» هذه . . . إننى أكره هذه الكلمة . . إنها كلمة بعثية (نسبة إلى حزب البعث) . . هل أنت بعثياً أم إخوان مسلمين أم ماركسياً ؟». وتضايقت حقيقة من هذا الأسلوب فى الحديث . ويبدو أن الضيق كان ظاهراً على وجهى أو أن صوتى قد ارتفع قليلاً رغم كل محاولات ضبط النفس . ولكنى أذكر أننى قلت للرئيس «آسف ياسيادة الرئيس لاستخدام كلمة «النظام» ، حيث لم أكن أدرى أن البعثيين هم الذين ابتدعوها . . ولم أكن أدرى أن الماركسيين والاخوان قد ساروا على نهجهم فى استخدام كلمة نظام . . . وأنا يا سيادة الرئيس لست بعثياً ولا إخوانياً ولا ماركسياً . . ولكن حتى إذا كنت منتمياً لأى من هذه التيارات فهل هذه تهمة أيضاً ؟ على أى الأحوال يا سيادة الرئيس إذا كان لا بد من توصيف لفكرى فهو فكر ديموقراطى قومى مستقل . . . ».

غير الرئيس من لهجته بعض الشىء ، وقال «دعنا من هذا . . . وماذا عن «الكلام الفارغ» الذى تكتبه هذه الأيام ؟» وتحيرت مرة أخرى . . وجربت أسلوباً مختلفاً ، حاولت أن أكون فيه مداعباً فقلت «إننى أكتب كلاماً فارغاً منذ سنوات وليس هذه الأيام فقط . . فأى كلام فارغ منه تقصدون سيادتكم؟».

مصر والولايات المتحدة

بدأ الرئيس السادات بسؤال عن أول كلام فارغ كتبته مؤخراً عن مصر وأمريكا ، وكان قد نشر فى مجلة أمريكية تسمى «فصليات الكونجرس» (Congressional Quarterly). سألت الرئيس عما إذا كان قرأ بنفسه ذلك المقال ، فأجاب بأنه لم يقرأه وإنما سمع به أثناء زيارته الأخيرة لواشنطن ، وإن أحد مساعديه أخبره أنه يسىء للعلاقات المصرية- الأمريكية ، ويسىء له شخصياً ! .

وانتهزت الفرصة ، لأقول للرئيس السادات «أن كل ما توجهون إلى من اتهامات إلى الآن يا سيادة الرئيس مبنى على السماع وليس قائماً على دليل مباشر يمكن مناقشته . . . فهل هكذا يحكم دائماً على الأشخاص والأمور . . . !» فرد الرئيس آمراً أن أكف عن «التفلسف» وأخبره بالدليل المباشر عن ذلك المقال .

وعند هذه النقطة نظرت إلى ساعتى وسألت بأدب جم عن طول الوقت المخصص للمقابلة ، فأشار الرئيس بأن آخذ راحتى فى الحديث . كما هزت السيدة جيان رأسها مؤكدة نفس الإشارة . قلت للرئيس :

«هذا المقال كان محاضرة ألقيتها فى يناير الماضى (١٩٨١) فى اجتماع أعده أحد المراكز البحثية فى واشنطن ذات العلاقة الوطيدة بالحزب الجمهورى ، بمناسبة الادارة الجديدة للرئيس الجديد رونالد ريجان ، ضمن سلسلة من الاجتماعات التى دعوا لها مفكرين وخبراء من مناطق العالم المختلفة ، وخاصة تلك التى تشهد توتراً مزمنا ، مثل منطقة الشرق الأوسط . وكانت المحاضرة بعنوان «**مصر والعلاقة بالقوتين الأعظم**» . وكانت الفكرة المركزية فيها هو أن هناك نمطاً فى طبيعة العلاقة بين مصر وكلا من القوتين الأعظم - حيث تبدأ العلاقة بمرحلة شهر عسل بأى منهما، ثم تتطور إلى مرحلة ثانية من الصداقة الطبيعية ، ثم إلى مرحلة ثالثة من خيبة الآمال والتوقعات المتبادلة ، ثم إلى مرحلة رابعة من التوتر وتبادل العتاب والشكوى والبرود ، ثم تنتهى بمرحلة خامسة هى ما يشبه الانفصال أو القطيعة أو الطلاق . . وأن هذا هو ما حدث فى العلاقة بين مصر والاتحاد السوفييتى خلال العشرين عاماً بين سنتى ١٩٥٥ و١٩٧٥ تقريباً وأن أحد أخطاء الاتحاد السوفييتى فى تلك العلاقة هو أنه أخذ مصر كقضية مسلم بها كحليف استراتيجى تعتمد عليه ، ومن ثم تراخى أو أهمل فى مراعاة مشاعر ومصالح المصريين ، وبدأ مع المرحلة الثالثة يعامل مصر كدولة تابعة . . ففقد

بـالتـدريج تعـاطف المصريين وحرصهم على العـلاقـة معـه (أى مع الاتحاد السوفييتي) . . . وبـالتالى حينها اتخذ السادات قـراراته بـالقطيعة مع الاتحاد السوفييتى ، فإن قطاعاً كبيراً من الرأى العـام المصرى كان متجاوباً مع هذه القـرارات . . . وأكدت المحـاضرة نفس النمط يمكن أن يتكـرر فى علاقـة مصر بالـولايات المتحدة ، التى بدأ شهـر العسل فيها بعد حرب اكتـوبر مع منتصف السبعينيـات . . وحذرت فى تلك المحـاضرة أن العلاقـة بين مصر والولايات المتحـدة تدخل مرحلتها الثالثة مع ولايـة الرئيس ريجان ، وما لم تتنبـه الولايـات المتحدة لـذلك فإن مشـاعر المصريين ستتحـول إلى مشاعـر سلبية، وأن أى رئيس مصرى مهما كـانت صداقته الشخصية مع الـولايات المتحدة ، لا يمكن أن يتجاهل هذه المشاعر الشعبية المصرية لمدة طويلة . . . وأن على أمريكـا ، إذا كانـت حريصة على ألا تتـدهور العـلاقة وتنـزلق إلى المرحلـة الرابعـة ثم الخامسـة ، هـو أن تبادر مـرة أخـرى وبقوة لاستئنـاف محاولات التسـوية السلميـة العـادلـة للقضية الفلسطينيـة وأن تضـاعف من مساعـداتها للاقتصـاد المصرى المتعثر ، وبشكـل جديـد تشعر معـه الفئات الأقل حظاً فى مصر بعائد المساعدات الأمريكية فى حياتها اليومية . . . »

قال الرئيس السادات ، الذى كـان يستمع بإهتمام ملحوظ ، «هذا كلام جيد . . . ولكن يبـدو أن الامريكيين لم يستوعبـوه . . . !» فسألت بدورى «مـاذا عن نتائج زيـارته الأخيرة (قبـل عدة أيـام) لواشنطن؟» . . . أطـرق الرئيـس قليـلاً ، ثـم قـال دون أن يجيـب عـلى السؤال مباشرة «لقد تعاملت مع أربعـة رؤساء امريكيين منذ أتيت إلى الحكم . . . كـان نيكسون يعرف قضيـة الشرق الأوسط جيداً . . وجـاء جيرالد فورد بعـده واستغرق عاماً ليفهم أساسيات القضية ، ولكن لم يطل عهده بالرئاسة إلا لعدة شهور بعـد هذا الفهم ، فلم يفعل كثيراً . . ثم جـاء جيمى كارتـر واستغرق ستـة شهور ليفهم القضيـة . . فتعاطف معنـا والتزم بتسـوية الصراع ، وقطع فى

ذلك شـوطاً لا بأس بـه . . ثم جاء رونالـد ريجـان إلى الرئـاسة ويقيـنى أنـه يحتـاج إلى عشـر سـنوات عـلى الأقـل لكى يفهم قضيـة الشـرق الأوسط . . . !»

ولما علقت أنا بقـولى أن مدة الرئاسـة فى أمريكا هى أربع سنـوات ، وانه على افتراض أن ريجان سيعاد انتخـابه لمدة ثانيـة ، وهى الحد الأقصى ، فان مجمـوع ذلك هـو ثمانى سنـوات فقط . قـال الـرئيس السـادات انـه يعـرف ذلك . . فقلت ، معنى ذلك أن ريجان أتى وسيذهب دون أن يفعل شيئاً يذكر لتسـويـة القضيـة الفلسطينيـة . . . ولم يعلق الـرئيس السـادات على هـذه الملاحظة . . . وسـادت لحظة صمت قصيرة واستنتجت أنا وقتهـا أن زيارة الـرئيس السـادات لـواشنطن لم تكـن مثمـرة ، على الأقل بـالنسبـة للصراع العربى الإسرائيلى ، وأنه قد عاد من أمريكا «بخفى حنين» .

السادات والجبهة الداخلية وأمريكا

قطع الرئيس السـادات لحظة الصمت بسؤال فيه رنـة استفسار اتهامى ، فحواه «هل هذا كل ما قلته فى ذلك المقال ؟ ألم تقل شيئاً عن الجبهة الداخلية هنا فى مصر ؟» .

حاولت أن أتـذكر تفاصيل أخرى من المحـاضرة التى نشرت كمقال فيما بعد . . وقلت بعد تردد ، «نعم يا سيادة الرئيس . . ذكرت أن هناك ارتباطا بين شعبيـة أى رئيس مصرى وشعبية الـدولـة الأعظم التى يصـادقها لـدى الرأى العـام المصرى . . . وانه إذا كانت شعبيـة الرئيس المصرى عـالية فإن ذلك يمتد عادة إلى شعبية هـذه القوة الأعظم ، حتى إذا لم تكن عند مستوى تـوقعات الـرأى العـام المصرى ، والعكس صحيح . . . ولكن الأسـوأ أن يكـون أداء الـرئيس واداء القـوة الأعظم التى يصـادقهـا ، أن يكـون هـذان الشيئان معاً دون مستوى توقعات رأى العام المصرى . . . » .

وباغتنى الرئيس السادات بسؤال محرج على الأقل فى نصفه ، حيث قال **«وماذا تعتقد أنت»؟** .

وترددت قليلاً فى الإجابة ونظرت للسيدة جيهان ، كمن يطلب النجاة. . . وقرأت فى نظرتها المتعاطفة وإيماءة رأسها كمن يشجعنى على إجابة صريحة . . . ومع ذلك لم تواتينى كل الشجاعة المطلوبة . . وبدأت بالجزء الأسهل من السؤال وأنا أفكر فى إختيار الكلمات بدقة للإجابة على الجزء الثاني . . . قلت : «سيادة الرئيس بالنسبة لشعبية الولايات المتحدة لدى الرأى العام المصرى هذه الأيام ، فلا شك أنها منخفضة للغاية ، وخاصة بعد الغارة الاسرائيلية على المفاعل النووى العراقى ، وإحساس كثير من المصريين أن ثمة تواطئا إن لم يكن تشجيعًا صريحًا من الولايات المتحدة . . . فما كان لاسرائيل أن تفعل ما فعلت دون ضوء أمريكى أخضر. . .»

وتمنيت أن يقف الحوار فى هذا الأمر عند هذه النقطة ، ولذت بالصمت. . ولكن الرئيس السادات قطع الصمت مرة أخرى بطلب الإجابة على بقية السؤال بقوله «وهل تعتقد أن ذلك قد أثر على شعبيتى أنا أيضاً . . . ؟» ومرة أخرى نظرت للسيدة جيهان كمن يطلب النجدة . . . وقرأت مرة أخرى فى نظرتها إيماءة تشجيع متعاطفة أن استمر فى الحديث الصريح . . .

قلت «سيادة الرئيس . . . . أنا أستطيع فقط أن أستدل من الدوائر التى اتحرك فيها وهى أساساً من المثقفين المصريين والعرب أن تدهور شعبية أمريكا بسبب سياستها وبسبب ما فعلته اسرائيل قد أثر على شعبيتكم أيضاً. . .» واستدركت لتخفيف العبارة ، «لا شك أن أجهزة الدولة المتخصصة يمكن أن تعطيكم رصداً أدق لما إذا كان ذلك صحيحاً».

هز الرجل رأسه بما يشبه الامتعاض ، وقال «أنا أعرف ما تقوله أجهزة الدولة . . . ولكنى كنت أريد معرفة رأيك ، ورأى الأفندية من المفكرين . . . . » فأجبت بأننى قد فعلت ذلك . . . فعاد ملحاً على نفس النقطة بسؤال آخر : «هل شعبية أمريكا هى التى انخفضت ، وبالتالى أدى ذلك إلى انخفاض شعبيتى ، أم أن شعبيتى هى التى انخفضت أولاً ، وبالتالى أدى ذلك إلى انخفاض شعبية أمريكا؟» .

لا أدرى سبب نوبة الشجاعة التى انتابتنى فجأة ، وقلت بلا تردد ، ودون أن انظر هذه المرة إلى السيدة جيهان فقلت «أعتقد يا سيادة الرئيس أن شعبية سيادتكم وشعبية أمريكا قد انخفضتا معاً طوال الشهور الأخيرة . . . ويبدو أن الرئيس السادات نفسه قد فوجئ بردى السريع . . فقال «لتنس أمريكا الآن ، ما هو السبب ، يا عبقرى ، فى انخفاض شعبيتي؟» . ولم يكن الأمر يحتاج إلى ذكاء لكى أفهم ما انطوى عليه استخدام الرئيس لكلمة «يا عبقري» من سخرية لاذعة . ولم أدر كيف أواصل الحديث . .

نظرت إلى ساعتى مرة أخرى ، فقلت : «هل سيادتكم متأكدون أننى لا أضيع وقتكم الثمين بهذه العبقرية الفذة»؟ . تجاهل الرئيس سؤالى ، وطلب مزيدا من الشاى ، الذى أتى فى أكواب زجاجية صغيرة . . ونظر إلى كمن يستعجل تلكؤى أو مراوغتى فى الإجابة على سؤاله الأخير . . فسألت بدورى «من أين أبدأ يا سيادة الرئيس . . . من الأسباب الداخلية أو الأسباب العربية والاقليمية . . . ؟ فقال بفراغ صبر واضح «ابدأ حيث شئت . . . » . وفكرت لحظة قصيرة وأخذت بالأحوط ، وهو الساحة العربية والاقليمية . . .

٣ ـ السادات والعرب

هل هو جحود عربى ؟

كان الرئيس الراحل مهتماً بتفسيرى لما حدث «لشعبيته» عربياً ومصرياً فى الشهور الأخيرة . وقد بدأت بالساحة العربية لأنها الأقل حساسية ، وعلى أمل أن يمتد الحديث حولها إلى نهاية اللقاء ، وبذلك أعفى نفسى من الحديث عن الساحة المصرية الأكثر حساسية .

قلت للرئيس ما معناه «إن الرأى العام العربى ما يزال فى حالة ذهول منذ رحلته المفاجئة إلى القدس فى نوفمبر ١٩٧٧ . فقد شعر العرب كما لو أن مصر قد تخلت عنهم وتخلت عن دورها القيادى للأمة العربية ، وانها سعت إلى صلح منفرد مع إسرائيل . . . . » ولم يكن فيما قلته إلى تلك اللحظة جديداً يستفز الرئيس . لذلك فقد كان ينصت كما لو كان يستمع إلى اسطوانة مكررة . . واستمر يهز رأسه كما لو كان ينتظر جديداً فى الحديث . . . وسرعان ما حدث ذلك عندما ذكرت «أن معظم العرب يشعرون كما لو أن الرئيس يمعن فى الاستهزاء بهم والحط من شأنهم فى كل مرة يذكرهم فيها بأن مصر هى الدولة المتحضرة الوحيدة فى الوطن العربى ، وأن حضارتها تمتد فى التاريخ إلى ستة أو سبعة آلاف سنة . . . وأن مصر صاحبة أفضال عليهم . . . . » .

هنا قاطعنى الرئيس متسائلاً «أو ليست هذه هى الحقيقة . . . ؟ وهل يشك أحد فى أن العرب بدون مصر هم مجموعة من الأصفار؟» فقلت للرئيس «بصرف النظر عن الحقيقة . . . سيادتكم تسألون عن سبب

الغضب العربي، وأنا أذكر لكم ما يغضبهم أو يحزنهم . . . فهم لا ينكرون فضل مصر أو يقللون من قدرها . فقط هم عاتبون لتحقير شأنهم بواسطة الإعلام الرسمى المصري . . . » ومرة أخرى سألنى الرئيس «وماذا تعتقد أنت . . . هل هم محقون؟». فقلت للرئيس «نعم هم محقون إلى حد كبير». فسأل بشيء من التهكم «ولماذا يا حضرة الفيلسوف؟». ومع هذه المرحلة من الحوار كنت قد تعودت تهكم الرئيس الراحل فأجبت :

«بدون فلسفة يا سيادة الرئيس لا ننسى أن مصر هى التى قادت المعركة السياسية والعسكرية والإعلامية ضد اسرائيل والغرب المؤيد لها على مدى ثلاثين عاماً . . . وهى التى عبأت الرأى العام العربى من ورائها من خلال إعلامها ومعلميها . . . وفجأة وبدون سابق إنذار طلبت مصر منهم أن ينسوا كل هذا ، وأن ينسوه بين ليلة وضحاها . . فإذا كانت مصر على حق طوال الثلاثين عاماً السابقة فكيف تنقلب على هذا الحق فجأة . . . وإذا كانت مصر على خطأ طوال تلك الثلاثين عاماً ، فما هو الضمان أنها ليست على خطأ الآن وهى تتصالح مع أعداء الأمس؟».

قال الرئيس بجدية ظاهرة «يقينى أنك درست التاريخ والعلاقات الدولية . . . وأنك لابد تعرف أن لكل صراع بين الأمم والشعوب نهاية . . . ألا ترى وألا يرى العرب أن أعداء الأمس فى أوروبا قد تصالحوا ، وتناسوا عداواتهم . . فإلى متى نظل نحن مستمرون فى هذا العداء المدمر للشعوب والمستنزف لمواردها . . . . أليس من حق هذا الجيل والأجيال القادمة فى منطقتنا أن نعطى فرصة للسلام بعد أربعة حروب ؟».

قلت «نعم يا سيادة الرئيس . . . ربما كانت صدمة العرب مع ذلك هى لسببين ، أولهما عنصر المفاجأة فى التحول الكامل عن مسار مصر السابق .

والثانى ، هـو أن الإعلام المصرى كان قد غرس فى أعماق النفـس العربية أن التنـاقض بيننـا وبين إسرائيل هـو تنـاقض وجـود أسـاسى ، لا حل لـه إلا بـانتصـار أحـد الارادتين ، الاسرائيليـة أو العـربيـة . وبما أن العـرب هم أهـل المنطقـة الاصـلاء والإسرائيـليون هـم الـدخلاء ، فكيـف بهـذه السرعة والسـهولة تواجـه الرأى العام العربى بتكييف جديد لطبيعة الصراع؟».

قـال الـرئيس الراحل «أولاً ، لم يكـن الأمر سريعـاً أو سهـلاً . . . هل تعتقد أنت أو العرب الذين تتحـدث عنهم أننى لم أمعن التفكير فى هذا الأمر لسنوات قبل وبعد حرب اكتوبر ؟ وهل تعتقد أنت أو العرب الذين تتحدث عنهم أن مقـابلـة أو الجلـوس مع منـاحيم بيجن أو الاسرائيليين الاخـرين بالأمـر السهل على نفسى ؟ ألم تدعـوكم الرئاسـة أنت وخمسة من الاسـاتذة المصريين للـذهاب معى إلى اسرائيل فى زيـارتى الثانيـة ورفضتم جميعاً هـذه الدعوة ؟ لقد اعتقدتم خطأ اننى أريد بذلك تأييدكم أو توريطكم فى الذهاب إلى إسرائيل . . . بينما كان قصدى أن تشعروا معى بـالمعاناة النفسية التى أمر بها فى كل زيارة إلى اسرائيل أو لقـاء معهم . . . نعم هم أعداء الأمس وربما هم أعـداء اليوم والغـد . . . ولكن المسألة ليست معـاناتى الشخصيـة وإنما معـانـاة شعبى وشعـوب المنطقة من جـراء حـروب لا يمكن أن تحسم هـذا الصراع بالذات ما دامت أمريكا والغـرب يقفون معها قلباً وقالباً . . . طبعاً كان يمكن تجميد الأوضاع على ما هـى عليه كما أراد الأسد وصدام والقذافى . . . فهـؤلاء وغيرهم لا يهمهم إلا أنفسهم . . . ولو كنت مثلهم لكفـانى انتصـار أكتـوبـر لأعيش عليـه طـوال مـا تبقى من رئاستى أو حيـاتى . . . ولكنى ذهبت إلى الحرب فى أكتـوبـر مـن أجل شعبى والأمـة العـربيـة . . . وذهبت إلى القدس أيضاً من أجل شعبى والأمة العربية . . . وكان القراران من أصعب قرارات حيـاتي . . . بـل وكـان قـرار السـلام أصعب على من

قرار الحرب . . . إن الذى لا يفهـم ذلك من العرب هو موتـور أو جاحد أو حاقد على مصر ورئيسها . . . »

الحروب وقطار التسويات

انتهـزت صمت الرئيس السـادات للحظـة قصيرة لأقول «ألا يحتمل يـا سيـادة الـرئيس أن المسألـة ليست حقـداً أو جحـوداً وإنما مجرد إختـلاف فى وجهات النظر؟ إن معظم العرب يعتقدون اعتقاداً جازماً أن إسرائيل لا تريد السلام ، وإنها تسعى إلى مزيد من التوسع والهيمنة بدليل ما تفعله فى المشرق العربى ، وآخـره الغارة الجوية على المفـاعل النووى العراقى بعـد يومين من مقابلة سيادتكم مع رئيـس الوزراء الاسرائيلى ، وأن جزءا من استراتيجيتها المعلنة كـان وما يـزال هو عـزل مصر عن أمتها العـربية لكى تنفـرد بالمشرق وتحقق هذه الأهداف ، ومن هنا ترحيبها بصلح منفرد مع مصر . . . » .

قـاطعنى الرئيس بشـىء من الحدة معترضاً على عبـارة «**الصلح المنفرد**» ، وقـال «إن ما فعلتـه مصر لم يكن صلحاً منفـرداً ، وإنما كانت بـداية عمليـة (قالها بالانجليزية) (Process) لتسوية شاملـة وعادلة . . . ودعنى أقول لك ان ما رفضـه العرب ، وأولهم ياسر عرفـات ، بعدم المشاركة فى مـؤتمر المينا هاوس سينـدمون عليـه ، وسيلهثون بعد سنـوات للحصول عليـه ، وقد لا يحصلـون عليـه أبـداً . . . وهذا هـو الـدرس المؤلم لتـاريخ الصراع العـربى الإسرائيلى . . . فبعد كل حـرب تسنح فرصة لتسـوية معقولـة فإذا ضاعت هذه الفرصة فإننا ننتظر عدة سنوات وندخل حربا جديدة تتاح لنا فيها فرصة أخرى لتسوية معقولة ولكنها أقل من التسـوية التى كانت متاحة فى الفرصة السـابقـة . . . والعـرب الـذين تتحـدث عنهم لا يـدركـون ذلك . . . أو يدركـونه ولكنهـم يكابـرون . . . إن قطار التسـوية الـذى جاء بعـد حرب اكتـوبر كـان على وشك أن يفوت العـرب جميعاً . . . وقـد نبهتهم إلى ذلك وخاصـة فى سوريـا والمنظمة . ولكنهم لم يستمعـوا ، فآثـرت ألا يفوت على

مصر هذا القطار . . . وعليك أن تتذكر كلماتى لن يأتى قطار آخر للتسوية إلا بعدحرب جديدة . . . وهاجسى هو أن العرب سيخسرون تلك الحرب بدون مصر وأنهم قد يقبلون تسوية أقل من تلك التى كانت متاحة فى كامب ديفيد . . . وأرجو أن يقبلونها حينئذ إذا عرضت عليهم . . . وإلا فإن هذا الصراع سيستمر إلى مائة سنة أخرى على الأقل . . . » .

توقف الرئيس عن الحديث وطلب كوبا من الماء . . وانتهزت الفرصة لأعلق على الفقرة الأخيرة قائلاً «سيادة الرئيس لقد سألتم عما كنت قد قرأت التاريخ والعلاقات الدولية . . . وما تعلمته هو أن أى تسويات سلمية تتم بين دول متصارعة تعكس فى الواقع ميزان القوى بينها . . . وهذا الميزان مختل الان لصالح اسرائيل . . . ألم يكن أفضل أن نعدل من هذا الميزان أولاً ، حتى تأتى التسوية عادلة أو منصفة للجانب العربى ؟ » .

أنظمة تستنزف بلادها بلا خطط للتحرير

قال الرئيس الراحل أنور السادات «هذا هو ما يردده الأسد وصدام والقذافي . وهو قد يكون كلام حق يراد به باطل . . فما يهم هذه الأنظمة هو البقاء فى الحكم أولاً ، وليس تحرير فلسطين أو حتى تحرير أراضيها «قلت للرئيس مداعباً بأننى توقفت على استخدام كلمة «أنظمة» منذ اعترض هو عليها فى بداية اللقاء ، فقال ضاحكاً لأول مرة خلال اللقاء فقط لا تستخدمها فى حالة مصر فنحن هنا دولة عريقة ، ولكنها تنطبق على العصابات الحاكمة فى بلدان عربية أخرى» .

قلت للرئيس «كيف تقولون سيادتكم ذلك بينما لدينا خبرة حرب أكتوبر نفسها . . ألم تشارك سوريا مصر فى خطة قتال جادة فى تلك الحرب؟ وألم تشارك دول عربية أخرى بما استطاعت من قوات ، مثل العراق

والمغرب والجزائر والكويت ؟ وألم تسهم دول أخرى فى المعـركة سواء بالمال أو بإستخدام أسلحة النفط ؟».

قـال الـرئيس بشىء من الضيق» . . . هـذا صحيح ولكن فقط لأن مصر أخـذت الأمـر مأخـذ الجـد . . . وكان على الجميع أن يفعلوا ما فعلوا خوفاً من شعوبهم . . . ولكـن لو تركـوا لأمرهـم فانهم مـا حاربوا وما سـاهموا بأى شىء . . . ولاستمـروا يحاربـون فقط بـالكلمات من خلف الميكروفـونات . . . وكما قادتهم مصر فى حرب جـادة فإنها تقودهم الآن فى سلام جاد»

قلت للـرئيس «ولكن تلـك الأنظمـة قبلت أن تقـودهـا مصر فى حـرب أكتوبر لأنه كان هناك إجماع عربى على هدف تحرير الأرض . . . وربما قبلت الأنظمة أن تسير وراء مصر وإن على مضـض خوفاً من شعـوبها . . . ولكن نفس الشىء لا ينطبـق على الموقف الحالى الـذى بـدأ بـزيـارة سيـادتكم للقدس . . . فـلأن هذه الأنظمة تخاف من شعوبها فـانها رفضت قيادة مصر هذه المرة . . . ».

قال الرئيس «هذا كلام فارغ . . . إن كل ما يهم هذه الأنظمة هو التشبث بالحكم . . . وتحت ذريعـة تحرير فلسطين أو الوحـدة العربية تسـوم شعوبها العذاب وتستنـزف ثرواتها فيما لا طائل وراءه . . . وهـذه الأنظمة هى التى تخاف من السلام وليس شعـوبها . . . فالعـرب الذين تتحـدث عنهم ليسوا الشعوب العربية وإنما الأنظمة المزايدة . . . أو الحكام الذين يبحثون عن مجد زائف . . . وإلا كيف تفسر ما يفعلـه صدام بمغامـراته المهلكـة مع إيران ، وهو الذى لم يطلق طلقة واحدة رداً على هجوم اسرائيل على مفاعله النووي؟ وبماذا تفسر المغامرات الطائشة للقـذافى فى كل مكان على هذا الكوكب إلا فى اتجاه إسرائيل؟ ومـاذا يفعل الأسـد فى لبنـان ؟ إننى لا أشعـر بألم حقيقى إلا بـالنسبـة للشعب الفلسطينى تحت الاحتـلال . . فهـو الـذى يعـانى من

مغامرات وعبث الحكام العرب . . . وكان أملى أن يدرك ياسر عرفات ذلك ولا ينزلق إلى مـزايدات الحكـام . . . لقد كنت ومـازلت مستعداً لعمل أى شىء ينقذ الشعب الفلسطينى ويحافظ على البقية الباقية من أرضه . . .».

مشـــــروع فهـــد

حاولت تغيير الموضوع قليلاً فقلت «يا سيادة الرئيس أليس مشروع فهد المفروض أن يعـرض فى قمة فـاس قريبـا جداً من مبـادرتكم وتفكيركم ؟ فلماذا ، إذنّ هجـــومكم عليـــه وهجـــوم الاعـــلام المصرى الـــرسمى على المشروع؟».

هنا تدخلت السيدة جيهان وقالت «فعلاً . . . أنا موافقة مع الدكتور لماذا يا ريس تهاجم الرجل ومشروعه بلا داع وتستعدى السعوديين عليك؟».

قـال الـرئيس بنبرة حـادة «لأنكما لا تدركـان أن مشروع فهـد أوهـام فى أوهام . . . إن فهد لا يفهم شيئا عن التفاوض مع اسرائيل . . . فليس لديه ما يقدمه لإسرائيل مقابل الطلبات العديدة التى يطلبها . . . ماذا يظن ؟ هل إسرائيل وأمـريكا عبيـد فى البـلاط السعودى . . . يأمـرهم بأن يجلـوا عن الأراضى العـربيـة المحتلـة ، وأن يسمحـــوا للفلسطينيين بـاقـامـة دولتهم المستقلة، وأن يعيـدوا القدس الشرقية للسيـادة العربية ، هل يأمـرهم وهو جـالس فى قصره ويتوقع أن يهرولـوا لتنفيـذ أوامره ، وهكـذا دون شىء فى المقابل ؟ هذه سذاجة سياسية . . . ثم إذا كان فهد حريص كل هذا الحرص على السلام والوئام فى المنطقة فلماذا خـاف فى قمة بغداد ؟ وسمح لعصبجية البعث أن يبتـزوه وقطع عـلاقـات السعـوديـة بمصر ؟ هل هـو أضعف من السلطـان قابـوس؟ وهل السعـودية أضعف من سلطنـة عمان التى رفضت الإبتزاز ؟ إن فى الأمـر شيئاً آخر . . . إنه الحقـد على مصر . . . واللهفة على زعامة الامة العربية . . .».

لقاء لم يتحقق مع المثقفين العرب

هزت السيدة جيهان رأسها بعدم الموافقة على كلام الرئيس عن السعودية وعن الأمير فهد . . . فقال الرئيس موجهاً الكلام لها وحدها هذه المرة «أنت لا تعرفين هؤلاء الحكام مثلما أعرفهم أنا . . . » ثم نظر إلى الرئيس موجها الكلام «دعنا من هؤلاء الحكام فقصصهم طويلة . . . أريد منك خدمة من أجل مصر والأمة العربية . . . يقولون إنك تعرف عدداً كبيراً من المثقفين العرب . . . فهل تستطيع أن تجمع لى خمسين أو مائة منهم فى أى مكان يختارونه لكى أتحاور معهم كما أتحاور معك الآن . . . ؟ أريد أن أقنعهم أو يقنعونى هم . . . ويمكن أن يكون هذا اللقاء سريا أو علنياً (قالها بالانجليزية) (Off the record or on the record) . . . فهل تستطيع أن تفعل ذلك؟» .

قلت للرئيس «لا بأس من المحاولة . . . سأستطلع الأمر مع بعضهم . . . » وتحمس الرئيس وقال «نعم أرجو أن تحاول وبأسرع ما يمكن . . . وأرجو أن يكون بينهم الدكتور قسطنطين زريق والدكتور مجيد خدورى والدكتور وليد الخالدى والدكتور خير الدين حسيب . . . هل تعرفهم ؟» وأجبت بالإيجاب . . . وسأل الرئيس «وماذا عن مصر ؟» وانتهزت الفرصة لتأجيل الحديث عن مصر قليلاً قائلا «أليس منطقياً أن يبدأ حواركم مع المثقفين المصريين أولاً ، قبل الحوار الأوسع مع المثقفين العرب؟» فقال الرئيس «ولم لا ؟ إذا أعددت للاجتماع مع المثقفين العرب فلا مانع من اجتماع يسبقه بأسبوع مع المثقفين المصريين؟» . وطلب الرئيس مزيدا من الشاى .

٤ ـ السادات والإسلاميون والأقباط

كلام فارغ عن الجماعات الإسلامية

كان يحلو للرئيس الراحل أن يبدأ أى موضوع فى هذا اللقاء بالهجوم . . . فبعد أن لاحظ أننى متردد حول الحديث عن الجبهة المصرية الداخلية ، سألنى عن «الكلام الفارغ» ، الذى نشرته فى أحد الدوريات العلمية مؤخراً عن الجماعات الإسلامية فى مصر . وكانت هذه هى المرة الثالثة التى يصف فيها أعمالاً نشرتها بأنها «كلام فارغ» (العمل الأول كان عن علاقة مصر بالقوتين الأعظم ؛ والثانى كان مقالاً عن ضرورة المصالحة العربية بعد الغارة الإسرائيلية على المفاعل النووى العراقى) . لذلك فقد كنت قد تعودت على أسلوبه فى الهجوم ، ولم أنفعل فى المرة الثالثة .

قلت للرئيس «إن كنتم تقصدون المقال الذى نشر فى المجلة الدولية لدراسات الشرق الأوسط فى ديسمبر الماضى (١٩٨٠) ، فهو يتناول بالوصف والتحليل والتفسير ظاهرة الجماعات الإسلامية الاحتجاجية فى مصر . . . » فسأل الرئيس بشىء من فراغ الصبر « . . . نعم . . . ماذا قلت فى تلك الدراسة؟» فهممت بمناولة الرئيس نسخة كنت أحملها معى من المقال . . . ولكنه أشار بيده ممتنعاً ، وقال «اذكر لى فحواها شفوياً . . . » فقلت ما ملخصه :

«هذه الجماعات ، يا سيادة الرئيس ، هى بعكس ما تذكر الصحافة القومية . . . فهم ليسوا مجانين أو معتوهين أو فاشلين . . . ولكنهم بالقطع غاضبون ساخطون . . . فقد اتضح من الدراسة الميدانية أن معظمهم من

طلاب أو خريجى الجامعات . . . وأن نسبة كبيرة منهم مما نسميه بكليات النخبة ـ الطب والهندسة والصيدلة والفنية العسكرية . . . أى أنهم من المتفوقين . . . ويبدو أنه رغم تفوقهم فهم محبطون ، يشعرون أنه ليس لهم مستقبل معقول أو زاهر فهم يتخرجون ولا يجدون عملاً . . وإذا وجدوا وظيفة فى أجهزة الدولة ، فإن راتبها يكون هزيلاً ، لا يكفى لايجاد مسكن أو الزواج وتكوين أسرة . فرد الرئيس بقوله «اننى تسامحت معهم فى الماضى، بل ودللتهم . . . فقد فرغ صبرى وانتهى تدليلى لهم . . . وسأريهم من الآن فصاعداً كيف يكون تصرف الدولة معهم . . . سأقبض على عشرين ألفًا منهم فى ٢٤ ساعة . . . وألقيهم فى السجون حتى يوقفوا عن غيهم . . . إن مصر ليست إيران ، ولن تكون ، ان كلامك عنهم هو كلام مفكرين فى ابراج عاجية . . . » .

ولا بد أن الرئيس قد رأى منظر الألم أو الفزع على وجهى ، لأنه توقف عن الحديث ، كما لو كان ينتظر تعليقاً منى . وفعلاً قلت :

«أولاً ، إن ما ذكرته أنا عن الجماعات الإسلامية العنيفة ليس كلام مفكرين فى أبراج عاجية . . فأنا عالم اجتماع يأخذ بالمنهج العلمى فى الدراسة . . . وما قلته كان مستنداً على دراسة ميدانية استمرت عدة سنوات، وقمت بها أنا وآخرون من خلال المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية . . . وتضمنت مقابلات متعمقة مع أعضاء هذه الجماعات ، وخاصة الموجودين منهم فى السجون من تنظيم الفنية العسكرية، وتنظيم التكفير والهجرة . . . وثانيا ، لا أعتقد ، يا سيادة الرئيس ، أن الأسلوب الأمنى الرادع وحده يكفى للتعامل مع هذه الظاهرة المستفحلة . . . فعدد المتهمين فى حادث الفنية العسكرية (١٩٧٤) كان أقل من مائة شخص ، ورغم صدور أحكام بالاعدام على أربعة من زعمائهم وسجن عدد آخر ، فانه بعد ثلاثة سنوات اصطدم تنظيم اسلامى آخر

بالدولة إصطداما أكثر دموية فى يوليو ١٩٧٧ . . . وهو تنظيم التكفير والهجرة . . . وكان عدد المتهمين الذين قبض عليهم هذه المرة عدة مئات . . . وأيضاً صدر حكم بالإعدام على خمسة من زعمائهم ، وسجن عدد كبير آخر . . . فهل هناك ردع أو عقاب أكثر من الإعدام والسجن المؤبد ؟ فلو أن هذه الوسيلة وحدها تجدى ، لكان أعضاء التكفير قد ارتدعوا بما حدث لأعضاء تنظيم الفنية العسكرية قبلهم بثلاث سنوات . . . أنا لا أقول أن من يكسر القانون لا يعاقب . . . ولكنى أقول إن الاجراءات الأمنية وحدها لا تكفى . . . فمعظمهم يصطدم بالدولة وهو يدرك أنه سيعاقب . . . ولكنهم يعتبرون ذلك جهادا فى سبيل الله والإسلام . . . والموت فى هذه الحالة يعتبر شهادة وإستشهاداً بالنسبة لهم . . . لذلك لا بد من التعامل مع الظاهرة باستراتيجية أكثر عمقاً وتكاملاً . . . ولا يأتى ذلك إلا بالتعامل مع أسبابها . . . » .

وهزت السيدة جيهان رأسها بالموافقة . . . فسأل الرئيس بشىء من السخرية فى صوته «وما هذه الإستراتيجية؟» .

إنه يطالب بثورة يا ساذجة !

قلت للرئيس السادات «إن من ينضمون للجماعات الإسلامية المتطرفة هم من أبناء الطبقات الوسطى . . . ولهم أحلام مشروعة فى أن يجدوا مكاناً لهم تحت الشمس . . . ومعظمهم الآن لا يجدون فرصاً للعمل المنتج والمجزى ، الذى من أجله درسوا واجتهدوا . . . فمعظمهم حتى إذا وجد وظيفة حكومية ، فإن راتبها لا يكفى لايجاد سكن مناسب ولا للزواج وتكوين أسرة . . . وفى نفس الوقت هم يلاحظون أن قلة من أقرانهم يرفلون فى الثراء والاستهلاك الترفى الذى جاء مع الإنفتاح . . . ناهيك عن أن معظمهم لا يعتقد أن هناك فرصة حقيقية للمشاركة السياسية . . . فإذا لم

يشارك هؤلاء الشباب الطموح فى الثروة أو السلطة فى وطنه ، فمن المنطقى أن يكون ساخطاً ومن السهل أن يتحول سخطه هذا إلى سلوك عنيف ضد الدولة المصرية . . . » .

ومرة أخرى هزت السيدة جيهان رأسها بالموافقة ، فسأل الرئيس «وما هو المطلوب تحديداً؟» .

قلت «أشياء كثيرة . . تبدأ بإعادة تأكيد مبدأ تكافؤ الفرص قولاً وعملاً . . والقضاء على المحسوبية ومحاصرة الفساد . . . وصياغة مشروع وطنى أو قومى كبير يدعى الشباب إلى المشاركة فيه . . . وزيادة هامش الديموقراطية حتى يشارك هؤلاء الشباب تدريجيا فى السلطة . . . ويشعرون أن البلد بلدهم ومستقبلها ومستقبلهم هما وجهان لنفس الشىء . . . » .

وبادرت السيدة جيهان بموافقة لفظية متحمسة «والله كلام سليم ياريس ، أنا أتفق مع الدكتور سعد . . . » .

فقاطعها الرئيس بسؤال استنكارى غاضب : «هل تدركين ما يطالب به الدكتور يا ساذجة؟ إنه يطالب بثورة !؟ .

ونظرت إلىّ السيدة جيهان كما لو كانت تريد التأكيد من أن ذلك ما أقصده . فقلت محاولاً التلطيف والتوضيح :

«لا أدرى ما إذا كان ما اقترحته ينطوى على ثورة أم لا . . . فالمهم هو عمل كل ما من شأنه نزع فتيل السخط والغضب عند هذه الشريحة الهامة من شباب مصر . . . فحتى إذا كان هذا المطلوب عمله هو ثورة ، فليكن . ومن الأفضل أن تكون ثورة جديدة تقودونها ، سيادتكم ، بشكل سلمى من أن تكون ثورة ضدكم يقودها آخرون بشكل دموى . . . » وتوقفت فجأة ، مستشعراً أننى ربما تجاوزت فى كلامى حدود اللياقة . ولكن لدهشتى لم يعلق الرئيس ، ولم يبدو عليه ما يفيد الاستنكاف . . . وسادت لحظة صمت وسرح الرئيس ناظراً إلى البحر . . . وشعرت بوجوب احترام

صمته وشروده المؤقت . . . وتطلعت إلى السيدة جيهان ، باحثاً عن اشارة هادية لما ينبغى قوله أو عمله .

لماذا عبد الناصر ؟

وفعلاً وجهت لى السيدة جيهان سؤالا عما إذا كنت أعتقد أن الإخوان المسلمين ينسقون مع بقية الجماعات الإسلامية «المتطرفة» ؟ .

ولم يبدو أن الرئيس تابع هذا السؤال ، فوجهت لها هى الكلام ، محاولاً الإجابة بأننى «لا أعرف . . . فهذه معلومات ما لم تكن منشورة أو عليها قرائن واضحة فإن «المباحث العامة» ، وليس «الباحث الأكاديمي» ، هى التى تملك الإجابة عليها . . . ومع ذلك فإذا كانت تطلب منى التخمين ، فان تخمينى هو أنه لا يوجد مثل هذا التنسيق . . . فالاخوان قرروا منذ بداية السبعينيات أن يقلعوا عن استخدام العنف . . . وأن ذلك هو السبب فى انشقاق بعض العناصر عليهم . . . وهذه العناصر المنشقة تحديداً هى التى كونت منذ ذلك الحين خمائر الجماعات الإسلامية المتطرفة الأخرى الموجودة على الساحة حاليا . . . » .

وظل الرئيس شاردا عنا . . . وأنا أجيب أسئلة أخرى للسيدة جيهان حول نفس الموضوع . . . إلى أن ورد اسم عبد الناصر عرضاً فى أحد إجاباتى على أسئلتها . . . وكما لو كان ذلك قد نبه الرئيس السادات فجأة من شروده ، فسألنى عما قلته لتوى عن عبدالناصر ؟ .

وبسلامة نية ساذجة أعدت على مسامع الرئيس ما كنت قد قلته منذ لحظة ، وفحواه :

«إن الرئيس عبد الناصر قد استخدم وسائل ردع عنيفة مع الإخوان ، ولكن أهم من ذلك سحب البساط من تحت أقدام الإخوان بأنه قام بإستمالة قواعدهم والمتعاطفين معهم من أبناء الطبقات الوسطى والدنيا بالتحولات

الاجتماعية ـ الاقتصادية الضخمة التى أفادتهم . . . أى أنه اشركهم فى ثروة البلاد . . . ثم صاغ لهم مشرعاً وطنياً مصرياً ، ومشروعاً قومياً عربياً ألهب خيالهم ، وجندهم لتنفيذه . . . أى أنه أشركهم بدرجة ما فى الشئون السياسية للبلاد . . . وخلاصة القول إن عبد الناصر قام «بتأميم» أبناء هذه الطبقات لصالح الثورة ، بأن جعل الثورة لصالحهم . . » .

قاطعنى الرئيس الراحل بغضب شديد ، ذكرنى باستقباله الغاضب فى بداية اللقاء . . . حيث قال ما فحواه «لماذا هذا الافتتان الغريب للأفندية المثقفين بكل شىء فعله عبد الناصر . . . وهو الذى حرمهم حرية التعبير . . ؟ كيف يدعون وكيف تدعى أنت أنه أشرك الشباب أو هذه الطبقات فى السلطة ؟ ألم يفرض عليك أنت الحراسة ، وأنت رئيس لمنظمة الطلبة العرب فى أمريكا . . . ؟ وألم تستمر هذه الحراسة عليك وعلى غيرك إلى أن ألغيتها أنا . . . ؟ هل نسيتم كيف كانت الأجهزة ومراكز القوى هى التى تعيس فى البلاد فساداً . . . إلى أن وقعت الواقعة ، وحاقت بنا أشنع هزيمة فى التاريخ؟ ألا تفكرون ؟ ألا تعقلون ؟» .

كان هذا الإنفجار مباغتاً . . . وأصابنى بالذهول والحيرة . . . وعجبت كيف لم أتذكر ما كان يشاع فى كثير من الأوساط عن حساسية الرئيس السادات من ذكر عبد الناصر . . . وكيف كان يتندر الناس على الطريقة التى كان يقول بها الرئيس السادات «عبد الناصر ، الله يرحمه» . وتعجبت أيضاً كيف يذكر الرئيس واقعة الحراسة التى فرضت على ، أثناء عهد الرئيس عبدالناصر . . . وحاولت أن أحتوى ذهولى وحيرتى بسرعة ، وأصطنعت ابتسامة ، لابد أنها كانت باهتة ، لكى أقول :

«عفواً يا سيادة الرئيس ، إننى لم أكن أقيم مجمل سياسات وممارسات الرئيس عبد الناصر . . . ولكن فقط كيف تعامل مع الإخوان المسلمين

باستراتيجية متعددة الأذرع وليس باجراءات أمنية ردعية فقط . . . وربما كان الأدق هو أن أقول إن ثورة يوليو تعاملت بهذه الاستراتيجية مع الإخوان، كما مع غيرهم من التيارات الرافضة العنيفة ، بما فيها اليسار . . . أما الموضوع الخاص بفرض الحراسة على ، فأنا ، إلى يومنا هذا ، لا أعرف لماذا فرض ، ولا لماذا ألغى؟ وفى كل الأحوال فهو أمر فردى خاص لا يمنع من التقييم الموضوعى لسياسات ثورة يوليو . . . ، وبالمناسبة فأنا شاكر وممتن لإلغاء الحراسة على فى عهدكم . . . ».

ويبدو أن الرئيس السادات قد لاحظ أننى كررت استخدام «ثورة يوليو» عدة مرات لأتفادى ذكر عبدالناصر مرة أخرى . . . فبدرت منه ابتسامة . . وعاد له الهدوء النسبى ، وهو يعلق على جزء آخر من كلامى السابق مع السيدة جيهان ، كنت اعتقد أنه لم يتنبه إليه وهو شارد نحو البحر .

التلمسانى . . . وشنودة

قال الرئيس السادات بصوت هادئ واثق :

«لا أوافق على تخمينك بأن الإخوان لا ينسقون مع الجماعات المتطرفة . . . لقد حنثوا بالوعد الذى قطعوه على أنفسهم حينما أخرجتهم من معتقلات عبدالناصر . . . إن كل تقارير الأجهزة الأمنية تفيد بأنهم ضالعون إلى قمة رأسهم فى أحداث العنف . . . ولكن من وراء ستار كثيف . . . إنهم يحرضون . . . ويتركون لشباب أرعن مهمة التنفيذ . . . إن سلوكهم وسلوك شنودة غير المسئول هو الذى فجر الفتنة الطائفية الأخيرة فى الزاوية الحمراء وكان توقيتها مقصوداً قبل زيارتى لأمريكا لتخريب سياستى الخارجية ، ولإجهاض عملية إجلاء اليهود عن بقية سيناء . . . لقد كان المقصود هو إحراجى فى الخارج . . . وسأعلم الجميع درساً لن ينسوه».

كـان لتعبيرات وجـه الـرئيس وهـو يلفظ العبـارة الأخيرة ويشـدد على مقاطـعها ، ما ذكـرنى بعـبارات وتعبـيرات مشابهة عـن «الفرم . . والسحق» . وإنتـابنى فـزع داخلى شديد . . . فسـألت الـرئيس عمـا ينـوى أن يفـعله . . . ولم ينتـظر أو يـتردد وكـأن لـديه خطـة جاهزة، حيث قال :

«سأعتقل التلمسانى . . وسأقيل شنودة من منصبه . . . » .

وتحول فزعـى الداخلى إلى ذعـر خارجى ، لابـد أن يكون قـد ظهر على وجهى بوضوح . . ولا بد أننى حاولت الكلام . . . ولم يسعفنى لسانى . . ونظر إلى الـرئيس وكأنـه يستعجل رد فعلى على هذه القنبلـة . . . وأخيراً ، قلت ما فحواه :

«يا سيادة الرئيس هذا إجراء لـن يفيد بالمرة . . . وسيزيد الطين بلة . إن للأستاذ التلمسـانى الفضل فى تحويل الإخوان إلى النهج السلمى . . . ومع ذلك ربما يكون الأستـاذ التلمسانى معتـاداً على الاعتقال . . . ولكن إقـالة البابا شنودة هو أمر خطير . . . فهـو لم يحدث أبداً فى تاريخ مصر الإسلامية على مدى أربعـة عشر قرناً . . . وحتى حينما حاول ذلك الخديـوى توفيق ، فإن المحاولـة وئدت فى المهد . . . إن مثل هذا العمل هو سـابقة خطيرة . . خطيرة . . يا سيادة الرئيس أرجو ألا تقدم عليها . . . »

أشـعل الرئيس السـادات غـليونه ، ورد بهـدوء شـديد «وهل كان أحـد يصـدق أن رئيس أكـبر دولـة عربيـة يـزور إسرائيل . . . ؟ وتمتمت موافقـا «نعم . . . لم نكن نصـدق ! . فقال الرئيس «إننـى أصنع السـوابق . . . ولا أحـتاج لمن يصـنعها قبلى . . . إن هـذا البـلد لـه رئيس واحـد . . لكـل المسلمين والأقباط . . . وسيعرف شنودة والتلمسانى ذلك معـاً . . . » .

ولـم تـكن هـذه هـى القنبـلة الأخـيرة قبـل نهـاية ذلـك اللقـاء العاصـف .

٥ ـ السادات حول قوى المعارضة المصرية

الوفديون والناصريون

لم أكـد أفق من قنبلـة الـرئيس الـراحل حـول نيتـه فى اعتقـال الأستـاذ التلمســـانى المرشـــد العـــام للإخـوان المسلـــمين وعزل الأنـــبا شنوده بطريرق الأقبـــاط ، حتى ســارع الـرئيس الســادات بقنــبلة ثـانية حـول نيته بـاعتقال «الـرؤوس الكبيرة الأخرى» التى تـراودها أحـلام الزعـامة فى مصر .

واستفسرت من الــرئيس عمن يقصــدهم «بـالــرؤوس الكبيرة» . . . فأجاب على الفـور ، وكأنه كـان ينتظر هـذا الاستفسار ، بأنـه يقصد كبـار الوفديين ومن يسمـون أنفسهم بالناصريين . فسألت باندهاش «ومـا علاقة هؤلاء بـالفتنة الطائفيـة؟» . فرد الرئيـس بما معناه «لأن الفتنة الطـائفية التى شهدنـاها فى الزاويـة الحمراء هى جـزء من فتنة وطنية أكبر يشـارك فيها كل الطـامعين فى الـزعامـة السيـاسيـة . . . وأنهم يقـوضون استقـرار البلـد ، ويشــوهون صــورتـه فى الخارج . . . وأنهم بذلـك يحاولون نسف منجـزات سياسته الـداخلية والخارجية . . . والدليل أنـه حتى البعض منهم الذى كان قد أيد المبادرة وكامب ديفيـد يتنكر الآن لموقفه السابق اعتقاداً منهم أن ذلك يزيد فى شـعـبيتهم ، ويقرب من فرص وثوبهم إلى الحكم . . .» .

وتوقف الرئيس عن الحديث ، فبـادرت بتعليق فحواه «انه يحتمل أن من تراجعوا عن تأييد المبادرة وكامب ديفيـد من الأحزاب السياسية كان مرجعه إستمرار سلوك إسرائيل العدوانى ، وخـاصة فى الآونة الأخيرة بعد ضرب

المفـاعل النووى العـراقى . . . ثم ان كـان ذلك ينطبق على أحـزاب الوفـد والعمل والأحرار ، فإنه لا ينطبق على الناصريين وعلى حزب التجمع حيث كانت مـواقفهم واضحة منذ البـداية فى رفض المبادرة وكـامب دافيد . . . » فرد الرئيس بما معناه «إنه يعـرف أقطاب هذه الأحزاب أكثر من أى شخص آخر . . . ويـدرك أطماعهم السياسية ، وخاصـة فؤاد سراج الدين الـذى ما زال يحلم بعـودة الباشـوات إلى كراسى الحكم . . . ويطمع شخصياً فى أن يكـون رئيساً لمصر ولـو ليـوم واحـد قبل موتـه . . . ولكن هـذا لن يحدث أبداً . . . وسيكون هو فى مقدمة المقبوض عليهم . . . » .

وأحدثت هذه القنبلـة مفعولها النفسى الذى لا بد أن يكـون قد ظهر من عـلامـات الفـزع على وجهى . . . واستغـربت للحظـة قصيرة مـا إذا كـان الرئيـس السادات جاداً فى كـل ذلك . . . وإذا كان جـاداً سواء فى نيتـه نحو إعتقال التلمسانـى وسراج الدين أو عزل البابا شنـودة ، فكيف يسر به بهذه السهولة لشخص مثلى ليس جزءاً من طاقم الحكم ، ولا حتى تربطه بهم أى علاقـة سابقة أو وثيقـة . . . وأراحنى هذا الخاطـر قليلاً . . . بل وأقنعت نفسى فى تلك اللحظة أن الرئيس السـادات إما أنه «يهوش» . أو انه يستمتع برؤية الفزع على وجهى من إلقاء هذه القنابل المتسارعة . . . وفى كلا الحالين قـررت أن أحـاوره بهدوء من منطلـق سيـاسى بحـت وليس من منطـلق مبـدئى أو أخلاقى .

فقلت للـرئيس مـا فحـواه «بصرف النظـر عن مقـاصـد هـذه الشخصيات . . . فإن القبض عليها أو عـزلها (فى حالة البابـا شنودة) يؤدى إلى عكس المطلوب تمامـاً . . . فإذا كان القصد هو المحـافظة على الإستقرار الـداخلى . وصورة مصر فى الخارج ، وحمايـة إنجازات السيـاسة الخارجيـة المصريـة فإن مثل هـذه الإجـراءات من جـانب الـدولـة هـو الـذى سيعطى الإنطباع بعـدم إستقرار الأوضاع الداخليـة وعدم قدرة الحكـومة على إدارة

الخلاف الـداخلى . . . » وانهيت تعليقى هنـا بإستفسار عما إذا كـان الـرئيس يعتقد حقاً ان هذه الشخصيـات والأحزاب التى يقودونها تخطط لإنقلاب أو قادرة على تنفيذ مثل هذا الانقلاب؟

ويبدو أن الاستفسار قد استفز الرئيس الراحل بعض الشىء . . . فسارع بالقول «إنهم جميعا فقاقيع سياسية . . . وإنه هو الذى أعاد لهم حيثياتهم ورد لهم اعتبارهم . . . ولكنهم نسـوا ذلك وبدأوا يتصرفـون كما لو كـانوا زعماء سياسيين حقيقيين . . . وأنه بالقبض عليهم وإيـداعهم المعتقلات يريد فقط ان يعيدهم إلى وعيهم وإلى أحجـامهم الحقيقية . . . ويلقنهم ويلقن غيرهم درساً لن ينسوه . . . ؟

الغرب يهتم بمصالحه قبل حقوق الإنسان

كنت أستمع باندهاش لهذه النظرة التـى توحى كما لو كانت الشخصيات العامة المصريـة التى ذكرها الرئيـس السادات هم بمثابة أطفـال أو تلاميذ فى فصل دراسى ويقوم هو بتهذيبهم . . . أو من العصاة والأشقياء الذين يقوم هو بتأديبهم . . . وحاولـت أن اقترب فى محاورته حـول هذا الأمر من زاوية أخرى ، فقلت ما فحواه : «يا سيـادة الرئيس حتى إذا كان ذلك ممكناً ، فإن رد الفعل الخارجى عربيـاً وغربياً سيكـون سلبياً . . . فخصـوم الرئيس من العـرب سيستخـدمـون هـذه الإجـراءات ، على افتراض تنفيـذهـا ، كمادة إعلامية مواتية للتدليل على تآكل شعبيته وعزلته عن الجماهير . . . وأصدقائه فى الغرب سيكونون فى غاية الحرج ، خاصة أن الرئيس السابق كارتر كان قد جعل من قضية حقوق الإنسـان والحريات الأساسية أحـد محكمات السياسة الخارجية الامريكية التعامل مع الدول الأخرى . . . ».

وقـاطعنى الـرئيس السادات بشىء من الحسـم والاستخفاف «الأنظمـة العربية لا تهمنى كثيراً . . . فما سأفعله لن يوازى واحد فى المائة مما تفعله هذه

الأنظمة مع المعارضين لها . . . ولدينا ما نرد به عليهم . . . أما حديثك عن الغـرب فإنى أتعجب منـه وخاصـة إنك درست هنـاك وعشت لعـدة سنوات . . . ألا تعرف أن ما يهم الغرب هو مصالحه فى المقام الأول؟ وألا تعـرف أن الغـرب يستخـدم قضيـة حقـوق الإنسـان فقط لإحـراج الاتحاد السـوفييتى والأنظمـة المعـاديـة لـه ؟ وإذا كنت لا تعـرف ذلك فكيف تبرر سكـوت الغـرب عما كـان يحدث فى إيران أيـام الشـاه ، وفى كـوريـا ، وفى باكستـان ، وفى الفليبين؟ ألا تنتهك حقوق الإنسـان هناك ، دون أن نسمع احتجاجاً غربيـا ؟ إن هـذا السكوت هـو لأن للغـرب مصالح فى هـذه البلدان الصديقة للغرب . . ؟ .

وسـاورتنى فكـرة مـاكـرة ، فقلت للـرئيس «ان سكـوت أمـريكـا عن انتهاكـات حقوق الإنسـان فى بعض هذه البلـدان هو لأن المنتهكـة حقوقهم يكـونـون عـادة من المعـاديـن لها . . . وقـد يصـدق ذلك على اليسـاريين أو الناصريين أو الإسلاميين . . . ولكنى سمعت سيادتكم تذكرون آخرين من المعـروف عنهم عـدم معـاداة الغـرب ، بل ويعتبرون أصـدقـاء للغـرب فى مصر . . . ولا أعتقد أن الأمر سيمر بسهولة . . . » .

قاطعـنى الرئيس بحـدة ، ليقول ما معناه «حتى هؤلاء الذين يتملقون الغـرب . . . وينتظـرون منه الـدعم والتأييد فى تحركـاتهم المريبة . . . سأثبت للغـرب أنهم لا يسـاوون شيئـاً . . . وأنهم غير قـادرين على حمايـة أنفسهم ، وبالتالى فهم غير قادرين على حماية مصالح الغرب فى مصر . . . » .

جـو المـؤامرة

بـدا لى مع التعليق الأخير للرئيس السـادات كما لـو كان يشك أن هنـاك مؤامرة ضده ، وأنه لا يستبعد أن الغرب ، أو بالأحرى الولايات المتحدة ، ضـالعة فيهـا . . . وانـه يريـد أن يجهضهـا فى المهد . . . وللتـأكد من هـذا

الافتراض . . . قلت بشيء من المداعبة» . . . حتى إذا كـان أصدقـاء الغرب فى مصر يتصـوررون ذلـك ، وأن سيـادتكم تـريـدون إثبـات العكس بإعتقالهم . . . فلماذا تفعلون نفس الشيء مع من يدعون بالناصريين ؟» .

قـال الـرئيس بصـوت هادئ «ان هـؤلاء جميعـاً مع اختـلاف الانتماءات والادعـاءات ـ من وفـديين وإسلاميين ويسـاريين وشيوعيين ومن يسمـون بـالناصريين ـ يشتركـون معـاً فى شىء واحـد . . . إنهم يعتقدون ان نظـام حكمى بدأ يضعف . . . وكل منهم يتسابق لـلإجهاز عليه . . . ويشتركون مـرحلياً فى هـذه الغايـة . . . ويعتقـد كل منهم انه فى حـالـة الإجهاز عليـه تستطيع كل فئة أن تجهـز على الفئات الأخرى وتنفرد هى بـالسلطة . . . انه تحالف غير مقدس تحركه أطماع مشتركة . . . ولكن لكل فئة أجندتها السرية بعـد ذلك . . . ولا يهمهم بـالطبع أن تغـرق مصر فى بحر مـن الدمـاء بعـد ذلك . . . ولكن خـاب ظنهم . . . إنهم واهمون . . . وسأفض حلفهم غير المقـدس بضربـة واحـدة . . . تعيـد العقـول إلى رشـدهـا والأمـور إلى نصابها . . .» .

وبدأ الرئيس يـذكر أسماء بعينها . . . ويعدد أفضالـه عليها . . ثم يعدد إنكارها للجميل . . . وبعض ما تقوله أو تفعله علناً أو سراً . . .

وقد اندهشت من نوعيـة هذه الأسماء التى شملت كثيراً من الشخصيات العامة من كل الأحزاب والتيـارات . . . ومن الكتاب والصحفيين وأساتذة الجامعـات . . . ورغم أننى كنت أعـرف معظمهم أو سمعت عنهم دون معـرفـة شخصيـة مبـاشرة . . . فقـد كـانت هنـاك أسماء لم أسمع عنهـا من قبل . . . وكنت أستفسر من الـرئيس عنهـم . . . وكـان الرئيـس يقدم هـذه المعلومات بطيب خاطر ، وببعض المتعة الظاهرة .

وتـوقفت خصـوصـاً عنـد أسماء وزراء سـابقين عملـوا مع الـرئيس السادات . . . وقلت للـرئيس «على افتراض أنكم ستعتقلون أصحـاب هذه

الأسماء وهم قد عملوا مع سيادتكم كوزراء . . . ألا يثير ذلك سؤالاً مشروعاً حول ثقتكم بهم سابقاً ثم اتهامهم لاحقاً . . . أي عن صحة قرار الاختيار ثم صحة قرار الإعتقال؟» .

بدأ الرئيس باستنكار عبارة «على إفتراض» التى بدأت بها تعليقى حول مسألة الإعتقالات التى ينتويها . . . حيث قال «إن هذا ليس افتراضيا . . . إنه قرار قد اتخذته بالفعل وستسمع به بعد يومين أو ثلاثة . . . فأنا حينما أقول أفعل . . . أما حكاية الوزراء السابقين هذه فهو درس لكل من أوليته ثقتى ثم حنث بهذه الثقة حتى بعد الخروج من المنصب . . . إننى أريد أن أعلم الجميع قيمة الوفاء . . . » .

المشهد الأخير

عند هذا الحد أيقنت أن الرئيس السادات ينوى فعلاً أن يقوم باعتقال جمع غفير من الشخصيات العامة المصرية . . . فقلت ما فحواه «أرجو أن يسمح لى سيادة الرئيس بالتعبير عن اختلافى مع ما ينتويه أو ما قرره فى هذا الصدد . . . وبشيء من الدعابة الحذرة أضفت بسرعة» . . . وأرجو ألا يكون هذا الاختلاف فى الرأى مدعاة لإدراج إسمى ضمن من سيقع اعتقالهم . . . » . ضحك الرئيس السادات ضحكة مجلجلة ، وقال «أنا لا أغدر بأحد . . . وقد دخلت هذا البيت آمناً . . » . وشجعنى ذلك على أن أقول « . . . على أى الأحوال أنا سأغادر مصر غداً لمؤتمر فى رودس لمدة أسبوع . . . » . فقال الرئيس وهو ما يزال يضحك « . . . وهل تعتقد أن مجرد السفر إلى الخارج يمكن أن ينجيك من العقاب . . . إذا أردت أن أوقعه عليك؟» . . . . فرددت بأنى «لا أعتقد ذلك . . . » فقال الرئيس «إنى سعيد أنك تتعلم بسرعة . . . » ثم نظر فى ساعته ، وقال «إنها الثالثة . . . وهذا موعد رياضتى اليومية ، وهى المشي . . . أرجو ألا أكون قد وجعت لك رأسك . . . أنا لا أتناول طعام الغداء . . . ولكنى أدعوك لتناوله مع بقية

الأسرة هنا . . . » وصافحنى الرئيس السادات بمودة ظاهرة . . . ثم انطلق يمشى بخطوة سريعة . . . حتى غاب فى أفق الحديقة الممتدة حول استراحته بالاسكندرية . ولم أدرك لحظتها أن ذلـك سيكون فعلاً المشهد الأخير الذى أرى فيه الرئيس أنور السادات .

٦ - مع السيدة جيهان السادات

بدأ لقائى العاصف مع الرئيس السادات فى حوالى الثانية عشرة ظهر يوم السبت الأخير من أغسطس ١٩٨١ ، وعند الثالثة بعد الظهر تماماً نظر الرئيس إلى ساعته ووقف معلناً أنه قد حان الوقت لرياضته اليومية وهى المشى لمدة ساعة . وقال بلهجة ودودة للغاية «آسف لقد أوجعت لك دماغك . . . وأنا لا أتناول وجبة الغداء كجزء من الريجيم . . . ولكنى أرجو أن تبقى لتناول الغداء مع جيهان . . . ». وأجبت الرئيس بأنى تشرفت بلقائه ، ودعوت له بالتوفيق ، وشكرته على دعوة الغداء . وصافحنى الرئيس بحرارة واضحة ، ثم غادر المكان بخطى سريعة .

وبعد غياب الرئيس فى أفق الحدائق الممتدة نحو البحر المتوسط ، هممت بمصافحة السيدة جيهان مودعاً . . . ولكنها تمنعت وقالت «ألم تسمع دعوة الرئيس لك بالغداء معنا ؟ وهل يرد كلام رئيس الجمهورية؟» وشكرتها على الدعوة الكريمة ، معتذراً بأنه أمامى سفر طويل فى العودة إلى القاهرة . وأجابت السيدة جيهان بأن «الوقت صيف ، والشمس لا تغيب إلا بعد الثامنة ، وأن هناك وقت كاف لتناول وجبة سريعة وبسيطة ، خاصة أن هناك أشياء لم يكتمل الحديث عنها . . . وتريد مناقشتها». وكان للجزء الأخير مما قالته ما أضعف مقاومتى على الاستمرار فى الإعتذار ، وشعورى بأن الدعوة للغداء ليس «دعوة مراكبية» أو للمجاملة . فقلت مداعباً ، «والله لا مانع . . . وان كان يقلقنى مسألة انها وجبة بسيطة . . . فإذا كان سيحسب على دعوة فى بيت الرئيس فينبغى أن تكون وجبة رئاسية تليق

بالمقام الرفيع . . . »، فضحكت وقـالت «هذه الوجبة لن تحسب . . . ولك دعوة أخرى حينما تعـود من الخارج إن شاء الله . . . وعنـدئذ ستكون فعلاً وجبة رئاسية عن حق» . ومشينا فى إتجاه مبنـى استراحة الرئاسة ، وانضمت إلينا أحد صديقاتها ، وهى أستاذة جامعية مرموقة .

قصة التعارف بالسيدة جيهان

كنت قد قـابلت السيدة جيهان السادات مقـابلة واحدة خاطفـة قبل لقاء الاسكندرية بعدة شهور فى حفل رسمى بالجامعـة الأمريكية بالقاهرة . فقد جاءت إلى الجامعـة لتدشين احتفال بأعياد الأمـومة الريفية . . . وفى طـابور استقبـال الأساتـذة . . . قدمت نفسى . . . فقـالت بصوت رقيق أشبـه إلى الهمس «آه نعم . . . هل نحن يا دكتور ممثلين حقـاً؟» وفاجئنى هذا السؤال غير التقليدى فى مناسبة احتفالية شكليـة ، وأمامى أساتذة ، وخلفى أساتذة فى الطابور ، فضلاً عن أننى لم أفهم حقيقـة مغزى السؤال ، حيث لم أكن قد قـابلتهـا من قبل . . . فقـالت «أقصـد مـا ذكـرتـه فى محاضرة لك فى لـوس انجلوس عنى وعن عمدة تلك المدينـة . . . » تذكرت على الفور مـا قصدته حرم الرئيس . . . وخبطت جبينى بكفى ، وتملكنى الخجل . . . وقلت «آه تذكرت . . . هل هذه وصلت أيضاً»؟ فأجابت بابتسامة عريضة «طبعاً . . . ألم يكن معك مصريـون آخـرون فى تلك المنـاسبـة ؟ إن كل شيء يصل . . . وعلى أى الأحوال لقد أعجبتنى القفشة رغم أنها كـانت لاذعة للغاية . . . » فقلت «المهم يا هانم انها أعجبتك ، فالحمد لله» ، ومضيت بسرعة ، بعد أن تعطل الطابور بشكل ملحوظ .

أما واقعـة ملاحظـة «التمثيل» التى أشارت إليهـا السيدة جيهـان ، فلها قصة ، لابد من ذكرها هنا ، ليس فقط لطرافتها ، ولكن لأنه يبدو أنها تركت إنطباعاً قويا عندها ، وأغلب الظن أنها السبب فى ترتيب اللقاء مع الرئيس ،

والـذى استعـرضت أهم مضمـونه فى الصفحـات السـابقـة ، وأخيراً لأنها تعكس جزءاً من المناخ الذى كان ، وربما ما يزال ، يحكم علاقات عدد كبير من المثقفين المصريين بالسلطة .

وملخص القصة هـو أنه فى عـام ١٩٨٠ ، قامت عـدة هيئات أمـريكية صديقـة لمصر بتنظيم مهرجـان ثقافى كبير فى الـولايات المتحـدة تحت عنوان «مصر اليوم» (Egypt Today) . واشتمل على محاضرات يلقيها عـدد من كبار المفكـرين المصريين فى المدن الأمريكيـة ، وكذلك على معـارض فنية ، وقراءات شعرية ، واستعـراضات للرقص الشعبى المصرى ودعيت السيدة جيهان لافتتـاح هذا المهرجـان فى كل مدينـة أمريكية رئيسيـة أسهمت فيه . وكنت ضمن مجموعة المفكرين التى تقوم بالقاء المحاضرات العامة . أما بقية المفكرين فقد كـانوا المرحومين الدكتـور لويس عوض والشاعـر صلاح عبد الصبـور ، والــدكتـورة سهير القلماوى ، والـدكتـورة فــرخنـده حسن ، والدكتـور محمد شعـلان . ولا أعلم إلى يومنـا هذا ، كيف تم اختيـار هذه المجموعـة بالـذات ، المهم أن التنظيم كان يقتضى أن تفتتح السيـدة جيهان المهرجـان فى كل مدينـة ، ثم يتبعها بعـدة أيام هـذه المجموعة مـن المفكرين لإلقاء محاضراتهم . أى أننـا لم نقابل السيـدة جيهان فى الولايـات المتحدة ، رغم مشاركتنا معها فى نفس البرنامج .

وكانت مدينة لوس انجلـوس هى أحد محطات البرنامج ، وزارتها حرم الرئيس الراحل قبل وصول مجموعـة المفكرين المصريين بعدة أيام . وقال لنا المضيفون الأمـريكيون أنها قـد تركت عليهم جميعاً تأثيراً قـوياً ، لـدرجة أن عمدة المدينة (مايـور برادلي) كان يبكى بالدموع وهو يـودعها فى مطار لوس انجلوس ، وانها بـادلت مودعيها الأمريكيين هـذه الدموع . لذلك عنـدما بدأت محاضرتى بجـامعة كاليفورنيـا ، أشرت إلى هذه الواقعة التى كـان قد رآهـا معظم سكـان المدينـة على شـاشـات التليفـزيـون (مشهـد الـوداع فى

المطـار) . . . ثم أطرقت قليـلاً ، وقلت مداعبـاً . . . . **الآن أدرك تمامـاً لماذا أصبحت مدينتكم (حيث توجد هوليوود) هى عاصمة التمثيل فى العالم . . . لقد لعب عمدة المدينة دوره باتقان ، وكذلك سيدتنا الأولى فى مصر . . . .»** ، ثم مضيت فى إلقـــاء محاضرتى عن الأوضــاع فى مصر والمنطقـة العـــربيـة فى أعقاب كامب ديفيد . واحتوت المحاضرة على نقد واضح لكل من سياسات أمريكـا والرئيـس السادات . . . وبـالمناسبة ، لم أكـن أنا النـاقد الـوحيد فى مجموعـة المفكرين المصريين الذين طـافوا بـالمدن الأمريكية فى هـذه الجولة . وأخص بالذكـر المرحوم الدكتور **لويس عوض**، الذى كان نقـده أشد حدة منى بكثير .

لم يدر بخلدى فى ذلك الوقت أن كل ما حدث فى هذه المحاضرة ، ومنها وصفى الساخر لعمـدة مدينة لوس انجلوس والسيـدة جيهان (بأنهما يجيدان التمثيل) سينقل إلى حرم الرئيس وربما إلى مسئولين آخرين . المهم أن ما نقل إليها كان هـو السبب فى أنها رتبت لقائى بالرئيس الراحل . ولا بـد أن يذكر فضلها فى ذلك . فرغم سخرية مـلاحظتى عنها هى شخصياً ، ورغم نقدى لسياسات زوجها رئيس الجمهورية ، إلا أنها لا بد قد خلصت إلى أن ما قلته عنها كـان من باب الـدعابة ، وإن نقـدى لسياسـات زوجها كـان من موقع الاجتهاد الموضوعى ، وليس من موقع عدائى متأصل .

على مائدة السيدة جيهان

بمجرد جلـوسنا إلى مائدة الغداء ، بـادرت السيدة جيهان بقـولها «أرجو ألا تكون قـد أخذت على خاطرك ممـا قاله «الـريس» . . . ولتكن متأكداً من شيئين . أولهما أن الـــرئيـس رجل وطنى محب لمصر كما لا يتصـــور أحــد . والثاني، انـه رغم نوبات غضبـه عليك إلا أنه كان مهتماً بشـدة بكل ما كنت تقوله ، وإلا ما استمر اللقاء ثلاث ساعات . . . فهو عادة يمل بسرعة إذا لم

يعجبه الحديث. . . ورغم زواجى منه ثلاثين سنة ، إلا أننى مازلت أفاجأ ببعض تصرفاته . . . وكثيراً ما تنشب بيننا مناقشات حامية ، مثل التى حدثت بينك وبينه اليوم ، ولكن بعد مدة يتضح لى أنه كان ثاقب الرؤية فى وجهة نظره. . . . . ».

فسألت مداعباً «وهل هذا النقاش المحتدم كان حول أمور عائلية شخصية أم حول قضايا عامة ؟». ضحكت السيدة جيهان ، وقالت «أرجو لا تستخدم صفتك كعالم إجتماع فى استدراجى للحديث عن أمور عائلية وشخصية . . . » فهذه لا تختلف بينى وبين أنور عما يحدث بين أى زوجين فى أى عائلة مصرية . وأنا كنت أشير فى احتدام النقاش بينى وبينه إلى أمور عامة». فسألت بسذاجة «مثل ماذا يا هانم ؟».

المفاوضات مع إسرائيل

قالت السيدة جيهان «مثل المفاوضات مع إسرائيل . . . فقد أخبرنى الرئيس يوماً ان الإسرائيليين يطلبون أن تكون هناك منطقة منزوعة السلاح على الجانب المصرى من الحدود ، يكون عرضها عشرة كيلو مترات. . . فعرض هو ضعف أو ثلاثة أمثال ذلك ، دون أن يصر على نفس الشيء فى الجانب الإسرائيلى من الحدود . وحين سمعت ذلك جن جنونى . . . وقلت للرئيس كيف تعرض ذلك وهم لم يطلبوه ؟ هل الأراضى المصرية هى عزبة ورثتها عن السيد والدك ؟ ولا أذكر أبداً أننى تطاولت عليه بالكلام مثلما حدث فى ذلك اليوم . . . لقد كنت فى حالة غضب وصلت إلى إنهيار دموعى . . . وقد أغاظنى أكثر أنه كان يضحك على ويقول إننى لا أفهم العقلية أو النفسية الإسرائيلية . . . وانه فعل ذلك لكى يطمئنهم على صدق نواياه السلمية من ناحية ، ولكى يصر فيما بعد على أن يتركوا كل بوصة من الأرض المصرية ، بما فى ذلك مستوطنة ياميت التى شيدوها لتبقى اسرائيلية

إلى الأبد . . . ومع ذلك لم أقتنع فى وقتها . . . ولكنى الآن مقتنعة بأنه كان محقاً . . . »

وكان تعليقى الوحيد هنا هو «نعم ربما كسب بذلك ثقة الاسرائيليين ولكنه خسر ثقة كثير من المصريين والعرب . . . وإذا كنت سيادتك أقرب الناس إليه قد أسأت فهم تصرفاته فى عالم السياسة . . . فكيف يلوم الرئيس المفكرين الذين لا يعرفونه بنفس الحميمية إن هم أساءوا الظن فى بعض سياساته؟». فهزت السيدة جيهان رأسها ، وقالت «معك حق . . . ليته كان يجتمع بالمثقفين دورياً مثلما اجتمع بك اليوم ، ليفسر لهم قراراته ويأخذ ويعطى معهم» .

ايرهارد الاقتصاد المصري

لم أرد أن أستطرد فى أى من هذه النقاط الخلافية على مائدة الغداء ، وخاصة فيما يتعلق بكامب ديفيد ، التى كنت مازلت إلى ذلك الوقت أقف منها معارضاً . . . فقد تعلمت أنه على موائد الطعام لا ينبغى الدخول فى جدل شديد مع رفاق المائدة . ومن ناحية ثانية لم أرغب أن تكون مناسبة هذا الغداء إمتداداً للمقابلة مع الرئيس . . . فقد استنفدت المقابلة معظم طاقتى العصبية . وغيرت الموضوع بالسؤال عن أمثلة أخرى من تلك التى اختلفت فيها مع الرئيس .

فتطوعت بمثالين . . . الأول عن وزير الإقتصاد والتخطيط والتعاون الدولى فى ذلك الوقت . . . ومما قالته أنها كلما استمعت إلى اقتصاديين آخرين أحست أن هناك أشياء عديدة مختلة فى الاقتصاد المصرى . . . وأن هناك ما يشبه الإجماع على ذلك . ومع هذا فكلما نبهت الرئيس إلى ما تسمعه ، كان يردد على أسماعها أن وزير اقتصاده هو «معجزة» لا تقل عن ايرهارد وزير الاقتصاد الألمانى الذى أعاد بناء الاقتصاد الألمانى بعد دمار الحرب

الثـانية . . . بل ومن إعجـابه الشـديد بـه كان الـرئيس يضيف إلى مناصبـه وزارات جديدة . . . إلى أن أصبح وزيـرا لأربع وزارات كل منها تحتاج إلى وزير متفرغ . . . وقالت إنها تشعر فى قرارة نفسها بأن هذا الرجل (أى وزير الوزارات الأربع) لا يقـول الحقيقة للرئيـس . . . وانه لا يصارحـه بحقيقة الموقف الاقتصـادى . . . وانـه قـد فاض بها الكيل يـومـاً حينما قـرأت لهذا الــوزيــر أن مصر قــد حققت لأول مــرة فى عهــده فــائضــاً فى ميــزان المدفوعات . . . فرغم أنها لا تعرف كثيراً فى الإقتصاد إلا أنها كانت تشعر أن هذا الكلام هو من قبيل «الدجل الإعلامي» .

وكان تعليقى هنا مختصرا وفحواه «اننى سمعت أن الرئيس لا يحب سماع الأخبار المقبضـة . . . ولا بد أن هـذا الوزيـر قد أدرك ذلـك . . ولهذا فهو حريص على أن ينقل إليـه أخباراً مفـرحة . . . حتى لـو لم تكن صحيحة» . فهـزت رأسها مـوافقـة ، وقالت «بين ايـرهـارد وترافـولتـا أشعر أن البلـد ستغرق . . . .» .

الوزيـر ترافــولتا

كنت قـد سمعت على تشبيـه وزير الاقتصـاد وقتهـا «بـايرهـارد» . . . ولكننى لم أكن سمعت عن وزيــر يشبـه بنجم هــوليـوود الـوسيـم «جـون ترافـولتا» . . . فتساءلت عمن تقصـد . فنظرت إلى صديقتها التى شـاركتنا مائدة الغداء . . . ثم نظرتا إلى فى دهشــة . . . وسألتا بصوت واحد «حقيقة لا تعرف ترافولتا المصري؟» . . . فأجبت بـأننى فعلاً لا أعرف من يقصدانه بهذه التسمية . . . واعتـذرت عن جهلى ، وندرة اختـلاطى بـدائرة الوزراء المصريين . فأجابت السيدتان بصوت واحد أيضاً «وزير الداخلية» .

فقلت بدهشة ساذجة «أى تشبيه آخر يمكن قبوله بالنسبة لوزير الداخلية ألا تشبيه وزيرنا بترافولتا الوسيم الـرشيق ، فوزيرنا لا يملك من الوسامة أو

الرشاقة شيء». فقالتا «نعرف ذلك . . . ولكن هناك قصة وراء هذه التسمية . . . وهى ان وزير الداخلية قد نجح أيضاً فى اكتساب ثقة الرئيس إلى أن أصبح نائباً لرئيس الوزراء لشئون وزارات الخدمات . . . وبهذه الصفة يتكالب عليه النواب فى مجلس الشعب ليأخذوا توقيعه بالموافقة على طلبات والتماسات لدوائرهم الانتخابية . . . وحدث ذات يوم ان اقتربت منه احدى النائبات تطلب توقيعه على شيء يخص دائرتها . . . وكانت زوجة الوزير وهى أيضاً نائبة فى مجلس الشعب على مقربة منهما واستاءت الزوجة من اقتراب النائبة الأخرى إلى الوزير إلى درجة الالتصاق . . . فنهرتها الزوجة النائبة بشدة أن تبتعد عنه وأن يكون عندها حياء وأدب . . . فاشتاطت النائبة غضباً من الزوجة وردت عليها بما معناه «هل تعتقد أن زوجها هو ترافولتا؟» فصارت مثلاً . وضحكت فعلاً على هذه الحكاية الطريفة . . . وتعجبت لهذه الأنماط من الأشخاص الذين يحكمون مصر ويتحكمون فى مصائرنا . . . ولكن بسرعة نفضت هذا الخاطر جانباً ، وسألت «وكيف يشترك ترافولتا مع ايرهارد فى اغراق مصر؟» .

قالت السيدة جيهان ، بجدية شديدة ، «لأنه لا يكف عن الايحاء للرئيس بأن هناك مؤامرات ضده . . . ويطلب منه أن يأذن له بالقبض على الضالعين فيها . . . نعم أنا أعرف أن للرئيس معارضين ، وربما أعداء . . . ولكن الخطرين من هؤلاء هم فقط بعض الجماعات الإسلامية المتطرفة وليس كل هذه الجماعات . . . أما الماركسيين والناصريين فهم لا يتآمرون . . . وانها تعرف عدداً كبيراً منهم ، بما فى ذلك بعض أساتذتها وزملائها فى قسم اللغة العربية بكلية الآداب . . . ومع ذلك فالقوائم التى يأتى بها ترافولتا تشمل أسماء كثير من المفكرين والشخصيات العامة من كل الاتجاهات ، ولا تقتصر على الإسلاميين المتطرفين . . . إن هذا الرجل نجح فى عزل الرئيس

تماماً عن كل المخلصين لـه ولمصر . . . وكـان آخـر من أوقع بينهم وبين الـرئيس هو الأستـاذ منصـور حسن الـذى هو من أنقى الوزراء وأكثـرهم حصافة واتزاناً . . . ».

ماذا عن لقاء المفكرين العرب ؟

ثم قالت السيدة جيهان «وبمناسبـة الحديث عن زملائى من الأساتذة فى كلية الآداب ، ماذا ستفعل بالنسبة لما طلبه منك الرئيس من إعداد لقاء له مع كبار المفكرين العرب من خارج مصر ؟».

فقلت لها إنها فكرة جيدة ولـو أنى لست متأكداً من درجة استجـابة كبار المفكرين العرب للفكرة . . . وليت الرئيـس يبدأ بلقاء أو أكثر مع المفكرين المصريين أنفسهم ، وخاصة المعارضين لسياساته . . . فإن ذلك يسهل كثيراً من استجابة زملائهم العرب للقاء مشابه».

قالـت السيدة جيهان «لماذا لا تحاول على أى الأحـوال مع بعض المثقفين العـرب الـذين ستراهم فى رودس؟». فوعـــدت أن أفعـل ذلك . وهنـا سـارعت بالحديث عن التفـاصيل التنظيمية لمثل هـذا اللقاء المقترح . وقـد عجبت بعض الشيء من إلحاحها على الفكرة . . . وعجبت أكثر من دخولها فى التفاصـيل حتى قبل أن نستـمزج رأى المثقفـين العـرب . وعجبـت أكـثر وأكـثر أنهـا كـانت تستعجل نتائج اتصـالى بهـؤلاء المثقفـين وأنـا مـع بعضـهم فى مؤتمـر بجـزيرة رودس اليـونانية . . . فقـد أعطتنى السيدة جيهـان رقم تليـفون خـاص ومباشر ، لكى اتصـل بها فيـه وأنا فى رودس ، لأخبرها بنتيجة استمزاجى لآراء المثقفين العرب الذين سأصادفهم هناك .

واقترحت السيـدة جيهـان أن يكـون اللقاء المقترح فى أسـوان فى أواخـر فصل الخريف . . . وأن يتجمع المثقفـون العـرب أولاً فى القـاهـرة ، ثم

تأخذهم طائرة خاصة إلى أسوان . . . وتحدثت عن برنامج ترويحى لهم هناك ، ليشاهدوا الآثار والمعالم المصرية الهامة . . . واقترحت أن أعرض عليهم أن يحضروا زوجاتهم معهم . . . كما أكدت بالطبع أن الرئاسة ستتحمل كل نفقات سفرهم وإقامتهم . . .

سيدة ساحرة وخفيفة الظل

لقد ظننت أن اقتراح الرئيس السادات لفكرة لقاء مع كبار المثقفين العرب قد جاء عرضاً أو من وحى اللحظة أثناء الحديث معه . . . ولكن إلحاح السيدة جيهان على الفكرة والدخول فى التفاصيل بعد ذلك ، جعلنى اوقن أنه ربما كان ذلك أحد أهداف لقائى معه فى المقام الأول . . . كما ساورنى خاطر عن تقسيم العمل أو تقسيم الأدوار بين الرئيس والسيدة حرمه ـ كأن يقترح هو فكرة ، ثم تقوم هى ببحث وإعداد الترتيبات الإجرائية لتنفيذها . وقلت لنفسى لحظتها « لو كان هذا الخاطر صحيحاً ، فإن الأمر يكون مدعاة للإعجاب بمثابرتها ودورها التكميلى المدعم لدور الرئيس . . . » .

وقررت فعلاً أن آخذ موضوع ترتيب اللقاء بين الرئيس السادات والمثقفين العرب مأخذ الجد ، لأول مرة على مائدة غداء السيدة جيهان . . . فقد أحسست أن الرئيس ربما كان ينوى أن يفجر واحدة من المفاجآت التى كانت تحلو له . . . وأنه اقترح اللقاء مع المثقفين العرب لهذا الغرض .

لقد تشعب الحديث بعد ذلك فى أمور شتى . . . واكتشفت خلالها خفة ظل السيدة جيهان ، وقوتها الساحرة على محدثيها . . . وكذلك ثقافتها الواسعة ، وسرعة بديهتها ، وروح النكتة لديها . . . وامتد بنا حديث مائدة الغداء إلى ما يقارب السادسة مساء ، أى لحوالى ثلاث ساعات ، مرت سريعة للغاية . . . ثم شكرتها على كرم الضيافة واستأذنت للانصراف ، حتى أعود للقاهرة قبل حلول الظلام . . . فودعتنى بحرارة وود ، كأننا

نعرف أحدنا الآخـر منذ سنوات طويلة . . . وكان آخـر ما طلبته هو ألا أن أنسى الاتصـــال بها من رودس . . . وأن أحضر لها مـن هنـــاك شتلتى تين وزيتـون من نوع معين اشتهـرت بهما تلك الجزيـرة اليونـانية . وهما طلبـان نـويت أن ألبيهما . . . ولكنى لم أتمكن من ذلك بسبب الأحـداث الجسيمـة التى بـدأت تتداعى بعـد ذلك بثلاثة أيـام . . . حتى المثقفين العرب الـذين كنت قد فاتحتهم فى اليوم الأول بعد وصولى إلى رودس ، ووافقوا مبدئيا بعد عناء الإقناع . . . ظنوا مع اليـوم الرابع (٤ سبتمبر) بعد سماع أخبار القبض على حـوالى ألف شخصية عـامة مصريـة اننى كنت أمزح . . . وان مـزاحى كـان سخيفـا فى أحسن الأحـوال . . . أو أنـه كان مـزاحـاً أسـود فى أسـوأ الأحوال .

ولم أر السيـدة جيهـان منـذ ذلـك اليـوم فى نهايـة أغسطس ١٩٨١ . . . ولكنى طالما تذكرت حديثها طوال السنوات العشر التالية .

القســم الثــانى
عـــام بعـــد الاغتـــيال

الفصل الأول : صبيحة الاغتيال

* تعالوا إلى كلمة سواء : التطرف الدينى وموضع الخلل
* من الضابط أنور السادات إلى الضابط خالد الاسلامبولى

الفصل الثانى : بين عبد الناصر والسادات

* هل تصح المقارنة بين عبد الناصر والسادات ؟
* الفلسفة العامة لعبد الناصر والسادات
* المسألة الاجتماعية بين عبد الناصر والسادات
* التوجهات التنموية بين عبد الناصر والسادات
* عروبة عبد الناصر وعروبة السادات

عـــام بعـــد الإغتيـــال

مقـــدمة

كانت الرصاصات التى أودت بحياة الرئيس السادات ظهر السادس من أكتوبر ١٩٨١ حدثاً اهتز له العالم من أدناه إلى أقصاه .

الـذين أطلقـوا الـرصـاص كـانـوا شبـابـاً من مصر ، أطلقـوهـا بـاسم «الاسلام» ؛ وقـد تم إعدامهـم بعد محاكمة صـاخبة . وانتهى بـذلك فصل مأساوى فى تاريخ مصر الحديث . ولكن لأن مصر تقع فى القلب من الوطن العـربى ، ولأن الـوطن العـربى يقـع فى القلب من العـالم ، ولأن التـاريخ متشابك الحلقات ، فان إغتيال الـرئيس السادات ، وإعدام من اغتالوه ، لا يمكن النظـر إليـه بمعـــزل عما سبق وعما لحق وعما سيلحق بمصر والـوطن العربى والشرق الأوسط والعالم .

لقـد كـان حادث الاغتيـال رمـزاً لقمـة الأزمة التى وصل إليهـا النظـام السياسى المصرى . فمقـدمات هذه الأزمـة بدأت فى أعقاب حرب أكتـوبر ١٩٧٣ ، وارتفعت حـرارتها فى أحـداث ينايـر ١٩٧٧ ، ودخلت مـرحلـة الغليان طوال الشهور التسعة الأولى من عام ١٩٨١ .

والأزمة لها جوانبها العديدة والمتداخلة .

لقد كـانت تنطوى عـن تعثر فى **«المسألة الاجتماعية»** ، ونقصد بها قـدرة النظام على التـوزيع العـادل للفرص ، وللثـروة ، وللسلطة بين المواطنين . وكانـت الأزمة تنطـوى على تعثر فى **«المسألة السياسية»** ، ونقصد بها قـدرة النظام على توسيع المشاركة الديموقـراطية . وكانت الأزمة تنطوى على تعثر

فى التعامل مع **«المسألة الاقتصادية»** ، ونقصد بها القـدرة على إدارة الاقتصاد وتنميتـه بكفاءة . وكـانت الأزمـة تنطوى على تعثـر فى **«المسألة الوطنية»** ، ونقصد بها القـدرة على المحافظة على إستقـلال مصر وعدم الـوقوع فى شرك التبعية لقوى أجنبية . وكانت الأزمة تنطوى على تعثر فى **«المسألة القومية»** ، ونقصد بها قـدرة النظام على ربط مصر وإدارة علاقـاتها بأقطار أمتها العـربية الأكبر ، ومجابهة للخطـر الصهيـونى المحـدق . وكـانت الأزمـة ، أخيراً ، تنطوى على تعثر فى **«المسألة الحضارية»** ، ونقصد بها قدرة النظام على المحافظة على الأصالة ، والمواءمة بينها وبين متطلبات القرن العشرين .

أزمة النظـام المصرى ـ إذن ـ فى ظل السنـوات الأخيرة من حكم الرئيس السادات ، كانت أزمة سداسية الجوانب . ولم يكن الاخفاق فى جانب واحد منها كافيـا لخلخلة النظام . ولكن الاخفاق فيهـا كلها ، وفى نفس الوقت ، هو الذى فجر الأزمة بشكل درامى فى سبتمبر واكتوبر ١٩٨١ .

ولم يـؤد مقتل الـرئيس السـادات إلى اختفـاء الأزمــة ، ولكنـه أدى إلى انفـراجـة مـؤقتـة . فمازالت المســائل الست (الاجتماعيـة ، والسيــاسيـة والاقتصاديـة ، والوطنيـة ، والقوميـة ، والحضاريـة) قائمـة دون حسم فى ادارتها والتعـامل معها . ولكن الانفـراجـة التى أعقبت الاغتيال المأسـاوى للــرئيس السـادات ، أدت إلى فتـح ملفـات المســائل الست ، وإلى الحوار والجدل حـولها . وليس الحوار دائماً عقـلانيـاً . وليس الجدل دائماً هـادئاً أو رصيناً . ولكنـه فى مجمله كـان وما يـزال محاولة للبحث عن الـروح الجماعية لمصر ، وللتعبير عن الهمـوم ، ولـلاستفـادة من دروس النجـاح والفشل . الحوار والجدل الذى أعقب اغتيال الرئيس السـادات كان وما يزال يهدف إلى اعادة ترتيب «البيت المصرى» أملا فى انطلاقه نحو مستقبل أفضل .

لقد شارك فى هذا الحوار العديـد من مفكرى مصر ، من أجيال مختلفة ، ومن مشارب سياسيـة وأيديولوجية مختلفـة . شارك فيه جيل من الليبراليين

واليساريين والإخوان المسلمين القدامى ، بقايا ما قبل ثورة يوليو ١٩٥٢ . وشارك فيه جيل ثورة يوليو ، ومن تبقى من قياداتها ومؤيديها ومنهم من عمل مع أو ضد عبد الناصر . وشارك فيه من عملوا مع أو ضد نظام السادات . كما شارك فيه جيل جديد لم «يتشرف» أو «يتدنس» بالعمل العام فى مصر الملكية أو مصر الناصرية أو مصر الساداتية .

والحوار ما يزال قائماً . . . وربما لن ينتهى .

وقد أسهم هذا الكاتب ، مع الكثيرين غيره ، فى الحوار الدائر ، من خلال عشرات المقالات الصحفية والدراسات الأكاديمية . وقد نشر معظمها فى صحيفتى «الأهرام» و«الجمهورية» و«مجلة الأهرام الاقتصادي» خلال عامى ١٩٨١ و١٩٨٢ .

الفصـــل الأول

صبيـــحة الاغتيـــال

* تعالوا إلى كلمة سواء : التطرف الدينى وموضع الخلل
* من الضابط أنور السادات إلى الضابط خالد الاسلامبولى

تعالوا إلى كلمة سواء :

التطرف الدينى وموضع الخلل (*)

هـذه المقـالة ليسـت نقداً «للتطـرف الـدينى فى المقـام الأول . ولكنهـا مجمـوعـة من الاستغـاثات ضـد من يكتبـون حـول هـذا الموضوع ، كما لـو كانوا يفهمـون . ويسدون لنا النصـائح كما لو كانوا صادقين .

ــ لقد سمعنـاهم بعد حـادث الكليـة الفنية العسكـرية فى ابـريل ١٩٧٤ .

ــ وقد سمعناهم بعد حـادث المواجهة بين التكفير والهجرة والدولة فى يوليو ١٩٧٧

ــ وقـد سمعناهـم ونسمعهم منذ اغتيـال الـرئيس الـراحل أنـور السادات فى أكتوبر ١٩٨١ .

ــ وربما سنسمع منهم مـرة ومـرات بعـد كل مـواجهـة داميـة بين الجماعات الدينية وسلطات الدولة الرسمية .

الغـريب والمؤلم إننا نسمع من هـؤلاء الكتـاب فى وسائل الإعـلام وعلى صفحات الجرائد نفس التشخيص ، ونفس التحليل ، ونفس العلاج ، لنفس الظاهرة ، التى يطلق عليهـــا «التطرف الدينى» . يحدث هـــذا منـــذ أوائل السبعينيـات ، وبـالأحرى منـذ سبتمبر ١٩٧٣ حينما اكتشفت أجهـزة الأمن أول هـذه التنظيمات الدينيـة المتطـرفة بإحـدى مغـارات الجبل الشرقى بأبى قرقاص .

(*) نشرت بصحيفة الأهرام ، ٢٠/ ١١/ ١٩٨١

وإلى جانب تلك التنظيمات السرية أو شبه السرية ، هناك عشرات الجماعات الإسلامية الأخرى العلنية ، والتى كانت تعمل جهاراً من أجل التوعية الإسلامية ، والدعوة إلى إقامة المجتمع الإسلامى ، ولكنها لم تكن تأخذ بالعنف وسيلة ومنهاجا .

نذكر كل هذا كتقديم لنقطة أساسية وهى أن هذه الجماعات الدينية الإسلامية ــ سواء السرى منها أو العلنى ، الذى يأخذ منها بالعنف أو بالموعظة الحسنة ــ قد استمر نموها باطراد وسرعة طيلة السنوات العشر الأخيرة .

خطأ فى تشخيص الظاهرة وعلاجها !

إذن لابد أن هناك عطباً أساسياً ، إما فى تشخيص أسباب الظاهرة أو فى طريقة العلاج ، أو فى التشخيص والعلاج معاً .

بعد كل هزة دموية تحيق بالمجتمع المصرى كنا نسمع أن القاعدة العريضة من شبابنا بخير . . وأن المنحرفين قلة غريبة . . أو أن لدى الشباب فراغاً دينياً أو رياضياً أو ثقافياً . . وأن ذلك هو المسئول عن ظاهرة التطرف .

وطالما سمعنا أن سبب الظاهرة «هو أن البيت أو المدرسة أو الجامعة أو وسائل الإعلام لا تقوم بواجبها كما ينبغى . . وإن ذلك هو المسئول عن تطرف الشباب وفهمهم المعوج للإسلام . . واستخدام العنف ؛ والإسلام الصحيح من كل ذلك براء . وطبعاً نسمع دائماً أن الأزهر ورجال الدين ربما قصروا فى واجبهم فى نشر وتفسير الإسلام الصحيح» . . وفى عدم التصدى للارهابين الذين حرفوا الإسلام وأساءوا لروحه النبيلة ويخرج علينا محافظ بنظرية «ان المشكلة فى أساسها اخلاقية» ، ويخرج علينا مسئول عن الشباب يفسر المشكلة على أنها نتيجة عدم وجود وزارة مختصة» .

كما قلنـــا تكـــرر هــــذا التشخيص مـن عــام ٧٤ إلى ٧٧ ، ويتكـــرر الآن . وتكررت المطـالبة بـأن يقوم الأزهـر «بدوره» ، وأن تقـوم الجامعات «بـواجبها» ، وأن تقـوم وسائل الإعـلام «بـرسالتهـا» . . . ويتم ما يعتقـد الناس أنه علاج ناجع لظاهرة «التطرف الدينى» . . . ولكنهم يفاجأون بعد سنة أو سنتين أو ثلاث أن أعداد المتطرفين قد تضاعفت .

فبينما لم يتعـد عدد المتهمين فى قضيـة الفنيـة العسكـرية ٩١ شخصـاً سنـة ١٩٧٤ وصل العـــدد فى قضيــة التكفير والهجـــرة إلى ٢٥٨ متهماً (قضيتى الاعتداء على الشيخ الذهبى والإنتماء للتنظيم) سنـة ١٩٧٧ والشواهد المبكرة تـدل على أن عدد المتهمين فى «التنظيم الإرهـابى» الجديد قـد وصل إلى ٥٧٨ متهماً إلى يوم ٣١ أكتوبر ١٩٨١ .

وبينما صـدر حكم الإعـدام على ثـلاثـة فقط عـام ١٩٧٤ ، زاد المحكـوم عليهم بـالإعـدام إلى خمسـة عام ١٩٧٧ ، وربما سيتضـاعف عـدد المحكـوم عليهم بهذه العقوبة فى جرائم عام ١٩٨١ .

الخلاصـة أن عـدد التنظيمات زاد ولم يقـل ، وأن حجم العنف امتـد ولم ينحسر ، وأن عدد المشاركين فى عمليات الإرهاب تضاعف ولم يتناقص .

ألا يـدل كل ذلك على أن هناك خطأ أسـاسيـاً إما فى التشخيص وإمـا فى العلاج ؟

إننـا نعتقد أن ظـاهـرة «التطرف الـدينى» قـد أسيء فهمهـا منذ أواخـر الستينيات ، وبالتحديد منذ هزيمة ١٩٦٧ وطوال عقد السبعينيات .

وأبسط مـا يمكن أن يقال عما نسمعـه أو نقـرأه فى وسائل الإعـلام ومن بعض المسئولين حول ظاهرة التطرف الدينى هو أنه يتصف بالتبسيط المخل ، وبـالتسطح البيروقـراطى ، وبـالهروب النعـامى من محاولـة الغـوص وراء أسباب الظاهرة .

لذلك أكتب هذا المقال مستغيثاً لا من التطـرف وما يصاحبه من إرهاب

وعنف فحسب ، ولكـن أهم من ذلك مستغيثـاً من التشخيص والمعـالجة السطحية الكسولة .

الإستغاثة الأولى :

المتطرفون ليسوا من المريخ

تتكلم وسائل الإعلام أحياناً عن المتطرفين كما لـو كانوا قد نزلوا علينا من المريخ . . كما لو أنهم بلا جـذور أو فروع فى المجتمع المصرى . . كما لو أنهم غرباء وفدوا إلى أرضنا بمحض الصدفة السيئة . إن ما ارتكبه ويرتكبه هؤلاء من عنف ربما هـو المسئول عن محاولـة وسائل الإعـلام تبرئة المجتمع المصرى منهم . ولكن الخطورة فى هذه «النظرة المريخية» للتطرف وللمتطرفين هى أنها تخلى نصيبنـا كشعب وكمجتمع وكنظام من المسئـولية . بل إنها تنطـوى على تسويف وطمس بليد لجذور الظاهرة .

إننى أقـول مستغيثـاً إن هـؤلاء المتطـرفين هم من صلب المجتمع المصرى وبـالأحـرى هم ينحـدرون من أهم شريحة فى الطبقـات الـوسطى . . والتى كـانت وستظل أهم مصدر للحيـوية السيـاسية والاجتماعيـة فى مصر . إنها الشريحة التى أفـرزت معظم زعمائنا الـوطنيين خلال هـذا القرن ، ابتـداء من سعد زغلول إلى النحاس إلى عبد الناصر وإنتهاء بالسادات ومبارك .

انظروا إلى قائمة المتهمين فى قضية الفنية العسكرية مثلاً . لقد كان معظم المتهمين من طـلاب وخـريجى كليات الطب والهنـدسـة والفنيـة العسكريـة نفسها . . وكـان بينهم ضابطـان برتبة عقيـد . . وكان أباؤهـم من موظفى الدولة ومن صغار ومتوسطى الملاك فى الريف والمدن . نفس الشيء تكشف عنه النظرة المتفحصة للمتهمين فى قضايا التطرف الدينى الأخرى .

خـلاصة القـول فى هـذه الاستغاثـة هـو أن المتطـرفين ليسوا من أطـراف المجتمع ولكن من قلبه وصلبه . ويمكن أن يكون من بينهم أخ لى أو لك ،

أو قريب لى أو لك . ولنسأل أنفسنا . . من منـا ليس له قريب أو صديق أو ابن قـريب أو ابن صديق فى الجماعـات الدينيـة ؟ من منا ليس لـه قريبـة من اللائى اخذن بالحجاب أو الزى الاسلامى فى السنوات الأخيرة ؟

الاستغاثة الثانية :

المتطرفون غاضبون ساخطون

إذا كان محتـوى الاستغاثة الأولى مقبـولا ، فان السؤال هـو لماذا ينخرط شبـاب من صلّب المجتمع ، ومن أحسن عنـاصره المتفوقـة دراسيـاً ، ومن أكثر **طبقاته حيوية ونشاطاً . . لماذا ينخرط مثل هذا الشباب فى جماعات دينية متطرفة تلجأ إلى العنف والإرهاب ؟**

الاجـابـة على السـؤال طـويلـة ومعقـدة . . ولكن يكفى أن نقـول انهم يحسون **بمفارقات مذهلة** بين قدراتهم الذاتية وانجـازاتهم التعليمية والمهنية من جانب وبين نصيبهم الحقيقى من الثـروة والسلطة فى مجتمعهم من جانب آخر أنهم يشعرون انهم قد فعلـوا كل ما طلبه المجتمع منهم من حيث التفوق والتحصيل ، ومع ذلك فهم هامشيون لا حول لهم ولا قوة . إن معظمهم لا يستطيع أن يلبى مطـالبه الأسـاسيـة المشروعة مثل السكن والـزواج إذا ظل أمينـاً ، وبقى داخل حدود الـدولة المصريـة . إن معظمهم يشعر أن كل مـا حوله يتغير ، وبلا سبب مفهوم ، وأنه عـاجز عن السيطرة أو حتى المشاركة فى أحداث أو منع هذا التغيير .

إن الجيل الـذى اكتسب وعيه فى السبعينيـات قد شهد اسـم بلده يتغير ، وكذلك علمهـا ونشيدها الـوطنى . ورأى فلسفتها الإقتصاديـة الاجتماعية تتغير ، وكذلك تحالفاتها الإقليمية والدوليـة . . وقيل إن ما سبق كان طالحاً وأن مـا لحق كـان صالحاً . وبصرف النظـر عن الصحـة أو الخطأ وراء هـذا التغيير فى كل شىء ، فالمهـم انه كان من حيث الكم والكيـف هائلا يصعب

استيعابه فى فترة زمنية قصيرة . . وفضلاً عن ذلك فإنه قد ترك إيحاء قوياً لدى الشباب بالشك فى كل شىء .

فمن يدريه أنهم لن يأتوه غداً ويقولون له أن ما تتمسك به اليوم زائف بدوره ، وانك مطالب بأن تؤمن بأن إسماً جديداً وعلماً جديداً ونشيداً جديداً وفلسفة جديدة وتحالفات جديدة هى الأصلح لوطنك .

من يصدق ، ومن يكذب ؟ لقد أصبح الشباب الأكثر ذكاء ووعياً وحساسية لا يصدقون أحداً . أصبحوا يشكون فى كل شىء متغير . وأصبح الثابت الوحيد فى حياة بعضهم هو وجه ربك ذو البقاء والاكرام ، ودينه الحنيف ، وقرآنه ، وسنة نبيه . تلكم ثوابت لا تتغير . . .

ومن هذه البداية المشروعة البريئة يبدأ المسلسل المعهود : الثابت أبقى من الزائف ، الشريعة الإسلامية أقوى من أى قانون وضعى ، النظام الاجتماعى الإسلامى هو العاصم من الفساد الداخلى والضعف الخارجى . والذى يمانع فى ذلك يصبح عدوا لله وللرسول وللمؤمنين . وبالتالى يحل سفك دمه . بل يجب سفك دمه . وهكذا يذهب منطق هؤلاء المتطرفين .

الاستغاثة الثالثة :
التطرف ليس ظاهرة جديدة

يخطئ من يعتقد أن التطرف ظاهرة جديدة فى مصر . ويخطئ من يعتقد أن الارهاب أو الاغتيال أسلوب مستحدث لتسوية الخلافات السياسية . فحتى اللفظ الانجليزى لكلمة اغتيال "Assassination" أصلها عربى ومصرى بالذات . وترجع فى جذورها إلى أيام الحاكم بأمر الله حيث كان بعض المنشقين على الدولة يلجأون إلى اغتيال جنود الدولة وهم ملثمون ليلاً . وكانت الدولة بدورها تطلق عليهم اسم «الحشاشين» وهو المقابل لما نعنيه فى يومنا هذا «بالارهابيين» .

وفى تاريخ مصر المعاصر حدثت عدة اغتيالات سياسية ، ابتداء من بطرس غالى إلى أحمد ماهر ، إلى أحمد الخازندار ، إلى أمين عثمان ، إلى محمود فهمى النقراشى . هذا عدا محاولات الاغتيال الكثيرة التى لم تنجح .

التطرف الفكرى أو المذهبى ـ إذن ـ ليس جديداً . وهو فى أبسط تعريفاته خروج عن القواعد والأطر الفكرية والدستورية والقانونية التى يرتضيها المجتمع ، والتى يسمح فى ظلها بالخلاف والحوار . وقد حدث التطرف بهذا المعنى منذ صدر التاريخ العربى الإسلامى واستمر إلى وقتنا هذا .

ولكن حينما يتحول التطرف هذا من فكر إلى عمل سياسى فإنه يصبح تحدياً لكل الأطر والقواعد التى يقوم عليها النظام الاجتماعى السياسى ، وكثيراً ما يأخذ شكل العنف والارهاب . وحتى هذا الشكل ليس جديداً تماماً فى مجتمعنا ، كما رأينا .

ولكن المراقب المتفحص لتاريخنا القومى يلاحظ أن هناك فترات معينة زاد فيها التطرف والاغتيال ، وفترات أخرى انحسر فيها التطرف والاغتيال . ربما كانت الاربعينيات تمثل أكبر عقد فى تاريخنا الحديث شهد من التطرف والعنف السياسى الداخلى ما لم يشهده عقد آخر الا عقد السبعينيات .

ويبدو لنا أن كلا العقدين كانا ينطويان على تغييرات هائلة فى بنية المجتمع المصرى ، وأن النظام السياسى كان متلكئاً عن أو سابقاً لحركة المجتمع ، وأن عدم التواكب فى الحركة خلق فصاماً بين بعض الشرائح الاجتماعية الهامة والقيادة السياسية . وتحول الفصام إلى خصام ثم إلى تطرف .

ومن هنا لابد من إعادة التواكب بين النظام السياسى والنظام الاجتماعى ، ولابد من اتساق ايقاع الحركة السياسية للقيادة مع الحركة الاجتماعية لأوسع الجماهير .

إن التطرف السياسى عموماً هو انسلاخ لشريحة اجتماعية معينة عن المجرى الرئيسى للحياة فى هذا المجتمع ، ان التطرف بمثابة النشاز فى معزوفة

سيمفونيـة . . حينما ينعدم أو يختلط الإتساق فى الإيقـاع . ويحدث ذلك عادة إما لخطأ فى النوتة الموسيقية ، أو لغفوة أو خطأ من المايسترو .

الاستغاثة الرابعة :

ليس بالردع وحده يتم القضاء على التطرف

إن العقاب الصارم والردع الحاسم مطلوبان فى مواجهة أعمال الإرهاب . لا يختلف حول ذلك عاقل .

ولكن الخطأ كل الخطأ أن يعتقد أى عاقل انه بالردع وبالاجراءات الأمنية وحدها يتم القضاء على التطرف . **إن التطرف وأعمال العنف والإرهاب هى ظواهر لم تنبت أو تنم فى المجتمع كهوايات مفضلة لدى بعض الشباب .**

ونعتقد نحن أنها هوايـات فاسدة ، وبالتـالى نصرفهم عنها إلى غيرها من الهوايات الصحيحـة «مثل الريـاضة والسفـر إلى الخارج وخدمـة البيئة . . . الخ» . . . وإذا لم ينصرفـوا عن هـوايـاتهم السيئة (التطـرف والعنف) فـاننـا نردعهم بالعقاب الصارم !

ليت الأمـر كان بهذه البسـاطة . . ! فكل مـا نحتاجـه فى هذه الحالـة هما وزارتا الشباب «للهوايات الصحية» والداخلية «للردع والعقاب» .

لقد وجـدت وزارة شباب ، وتحولت إلى جهـاز ، ثم إلى وزارة ، ثم إلى جهاز . ووجـدت منظمات شباب وأمانات شبـاب وأمناء شباب . وتـوجد دائماً وزارة داخلية . . والكل يشهد لها فى السنـوات الأخيرة بكفاءة تحسدها عليها كل الوزارات الأخرى !

وقد أعدمنا من أعدمنا وسجنـا من سجنا عام ١٩٧٤ . ثم أعدمنا ضعف ذلك وسجنـا ضعف ذلك عـام ١٩٧٧ . وسنعدم وسنسجن فى عـام ١٩٨١ ضعف من أعدمناهم وسجناهم فى الجولـة السابقة . ولم ترتدع تلك الشريحة من الشباب عن تطرفها . فهل سيستمر المسلسل . ؟

فى رأينا أن المطلوب هو رؤية جديدة يصدقها الشباب ، وتحديات جديدة تلهم خياله ، وبرامج جديدة تستوعب طاقاته ، وسياسات جديدة تستجيب لاحتياجاته الأساسية .

إن المطلوب ـ باختصار ـ هو أن ننهى هامشية هذا القطاع الهام من شباب مصر . ولن تنتهى تلك الهامشية بالردع وحده ، أو بالبرامج الاحتفالية ، أو بالوعظ والارشاد من رجال الأزهر الشريف .

إن الشباب يعنى طاقة وخيالا ومشكلات ولهفة . وهذه العناصر معاً تساوى ثورة كامنة أو ظاهرة . إذا لم ينجح النظام السياسى فى تأميمها لصالحه، نجح التطرف فى استقطابها لصالحه وفى استعدائها على النظام .

التطرف الدينى والسياسة

من الضابط أنور السادات
إلى الضابط خالد الإسلامبولى (*)

صفحات مطوية من ماضينا القريب لفهم العوامل والأسباب قبل أن ندخل فى تعريف التطرف ومظاهره وأسبابه . أرجو أن اشرك القارئ فى هذه الاعترافات لثلاثة من المتطرفين - فى زمانهم ومكانهم طبعاً . فالتطرف كما سنرى هو مسألة نسبية للغاية . ولكن يجمع بين المتطرفين الثلاثة الذين نعرض لاعترافاتهم . هو أنهم فكروا ودبروا وحاولوا تنفيذ واحد أو أكثر من الاغتيالات السياسية لحكام أو مسئولين سياسيين من معاصريهم . وكان الاغتيال فى تلك الحالات جميعاً بمثابة حكم وطنى من جانب المتطرفين ضد حكام اعتقدوا أنهم «مفسدون أو خونة» . والاعتراف فى لغة القانون هو سيد الأدلة .

الاعتراف الأول

«كان الشيخ جمال الدين (الأفغانى) موافقاً على خلع (الخديوى إسماعيل) . . واقترح علىّ أنا أن أقتل إسماعيل . . وكان يمر فى مركبته كل يوم على جسر قصر النيل . ولكن كل هذا كان كلاماً ، نتهامسه فيما بيننا .

(*) نشرت بمجلة العربى (الكويتية) ، عدد فبراير ١٩٨٢ .

وكنت أنا مـوافقاً الموافقـة كلها على قتل إسماعيل . . ولكن كـان ينقصنا من يقودنا فى هذه الحركة» .

(الشـيخ محمد عبـده : رأى الشـيـخ محمـد عبـده فى تاريـخ عـرابى - ص ٣٥٤)

الاعتراف الثانى

«إن الاغتيالات السياسيـة توهجت فى خيالى المشتعل فى تلك الفترة على أنها العمل الإيجابى الـذى لا مفر مـن الاقـدام عليـه إذ كـان يجب أن ننقـذ مستقبل وطننا . وفكرت فى اغتيـال كثيرين وجدت أنهم العقبات التى تقف بين وطننا وبين مستقبله . . . وفكرت فى اغتيال الملك السابق وبعض رجاله الـذين كـانوا يعبثـون بمقـدسـاتنا . ولم أكن وحـدى فى هـذا التفكير . ولما جلست مع غيرى انتقـل بنـا التفكير إلى التـدبير . ومـا أكثـر الخطط التى رسمتها فى تلك الأيام . . . كانت لنا أسرار هائلة ، وكانت لنا رموز ، وكنا نتستر بالظـلام ، وكنا نـرص المسدسات بجـوار القنابل ، وكـانت طلقات الرصاص هى الأمل الذى نحلم به! وقمنا بمحاولات كثيرة فى هذا الاتجاه، ومازلت أذكـر حتى اليوم إنفعـالاتنا ومشاعـرنا ونحن نـندفع فى الطريق إلى نهايته . . . واذكر ليلة حاسمـة فى مجرى أفكارى وأحلامى فى هذا الاتجاه . كنا قد أعددنا العدة للعمل . . . واخترنا واحدا . قلنا انه يجب أن يزول من الطريق . ودرسنا ظروف حياة هذا الـواحد ، ووضعنا الخطة بالتفاصيل . وجاءت الليلة الموعودة وخرجت بنفسى مع جماعات التنفيذ وسار كل شىء طبقاً لما تصورناه . كان المسرح خاليـا كما توقعنا . وكمنت الفرق فى أماكنها التى حـددت لها ، أقبل الواحـد الذى كـان يجب أن يزول ، وانطلق نحـوه الرصاص . . . وانسحبت فرقة التنفيـذ . وغطت انسحابها فرقة الحراسة ، وبدأت عملية الافلات الى النجـاة . وأدرت محرك سيارتى وانطلقت أغادر

المسرح الذى شهد عملنا الايجابى الـذى رتبناه . . وعندئذ دوت فى مسمعى أصوات صريخ وعـويل ، وولولة امـرأة ورعب طفل ، ثم استغاثـة متصلة محمومة» .

(جمال عبد الناصر : **فلسفة الثورة** ، ص ٣٣ ـ ٣٥)

الاعتراف الثالث

« . . بمجرد أن عاد إلى كيانى كمواطن حر طليق كان أول عمل قمت به هـو تكـوين الجمعيـة السريـة . . فكيـف تتحـرر الـذات بـدون أن يتحـرر الوطن!؟ كان ذلك فى سبتمبر سنة ١٩٤٥ . . . اتصلت بعمر ابن على شقيق زميلى سعود حسين الطيار الذى سبق أن أرسلناه لروميل وضربت طائرته . وعـرفنى بشـاب اسمـه حسين تـوفيـق اتضح أنـه كـان يمارس قتل الجنـود الانجليز فى المعادى قبل ان ينضم إلينا . . . ربما كان هذا العمل مجرد تدريب . ولكن المهم ان نتخلص ممن كانوا يسـاندون الانجليز فى ذلك الوقت . . . وكان على رأس هـؤلاء فى نظرنا مصطفى النحاس بـاشا رئيس حزب الـوفد الذى سقط فى نظرنا منذ أن فـرضه الانجليز بقوة السلاح فى ٤ فبراير ١٩٤٢ . . فلا شىء يعـادل خيبة الأمل التى يصـاب بها الشباب فى زعيم كان يـوماً مثلهم الأعلى . . وأصبح فى نظرنـا خائنا لمصر ولشعبها يحتم واجبنـا الوطنى أن نزيله من طريقنا . . ولذلك قررنا التخلص منه .

كانت عـادة النحاس أن يـذهب فى يوم مـولد النبى إلى النـادى السعدى وهو مقر حـزب الوفد ليلقى خطابـاً بهذه المناسبة . . وصـادف ذلك يوم ٦ سبتمبر سنـة ٤٥ فخرجت أنـا وبعض أفـراد الجمعية السريـة ننتظر خـروج النحاس مـن جاردن سيتى إلى شارع القصر العينـى حيث يوجـد النادى . . كنت قد دربت أعضاء الجمعية على استعمال القنـابل اليدوية . . وكان الذى سيقـوم بالعمليـة حسين توفيق . . وفعـلاً ألقى القنبلـة فى الوقت المنـاسب

ولكن سائق النحاس فوجيء وهو ينطلق بعربة ترام تصطدم به فأسرع لكى يتحاشاها . . كان فرق السرعة ست ثوان لا أكثر . . ولكنها كانت كافية فعندما انفجرت القنبلة كان النحاس وعربته خارج منطقة الانفجار . . فانسحبنا فى هدوء . . حيث توجهنا إلى مقهى استرا ، مكاننا المفضل . . فى نفس المقهى قررنا التخلص من أمين عثمان الذى تولى وزارة المالية طوال حكم النحاس بعد أن فرضه الإنجليز فى ٤ فبراير . . .

(أنور السادات : **البحث عن الذات** ، ص ٧٠ ـ ٧١)

لقد صدرنا هذا المقال بالاقتباسات السابقة لكى ندلل على أن بعض الزعماء الذين أصبحوا قيادات شعبية ودينية قد فكروا فى الاغتيالات السياسية، ودبروا لها ، وحاولوا تنفيذها .

إن اللجوء إلى العنف لحسم الخلاف السياسى ليس جديداً على الساحة الإسلامية أو العربية أو المصرية . وهو ليس حكراً أو وصمة فى جبين شعب دون شعب من شعوب العالم . بل إنه ليس وقفاً على طبقة دون طبقة فى أى مجتمع : وأى استعراض للاغتيالات السياسية الكبرى فى التاريخ القديم والوسيط والمعاصر تثبت ذلك ــ ابتداء من اغتيال يوليوس قيصر فى روما القديمة ، إلى اغتيال الخلفاء الراشدين فى صدر الإسلام ، إلى اغتيال الجنرال كليبر الفرنسى خليفة نابليون فى القاهرة ، إلى اغتيال الرئيس الأمريكى ابراهام لنكولن فى واشنطن ، والرئيس جون كيندى بعده بحوالى القرن فى أحد شوارع مدينة دلاس . هذا عدا محاولات الاغتيال العديدة التى يقصر المقام عن ذكرها .

ويربط الناس عادة ، وخاصة المعاصرين منهم للحدث ، بين فعل الاغتيال وظاهرة «التطرف» . ومن هنا لا يزداد الاهتمام بدراسة «التطرف» دراسة متعمقة إلا فى أعقاب حوادث الاغتيال السياسى ، أو العنف ، أو المواجهة المسلحة بين بعض الجماعات من ناحية ، وسلطات الدولة من

ناحية أخرى . فماذا يعنى «التطرف» وما هى أسبابه عموماً ، وما هى أسبابه خصوصاً فى وطننا العربى ؟

فى الملاحظات السابقة تحدثنا عن «التطرف» بصفة عامة ـ دون أن نخص بالحديث أى نوع من التطرف .

هناك خطأ شائع بتقسيم التطرف إلى أنواع مضمونية أو شكلية دون وضوح المعيار المنطقى لهذا التقسيم . فأحياناً يصنف التطرف حسب مضمونه كأن يقال «تطرف دينى» أو «تطرف طبقى» أو «تطرف قومى» أو «تطرف سياسى» أو «تطرف عنصرى» . وأحياناً يصنف التطرف حسب الوسيلة أو الشكل التنظيمى أو الأسلوب التكتيكى ، وما إلى ذلك .

ولكن أياً كان مضمون التطرف ، فإنه حينما يتخذ شكلاً سلوكياً جماعياً ينطوى على تحدى السلطة القائمة فانه يصبح تطرفاً سياسياً . فالتطرف الدينى ـ بمعنى الخروج عن المعتاد أو المتعارف عليه فى العقيدة والشعور والسلوك لدى أغلبية الناس ـ قد لا يكون تطرفاً سياسياً طالما لم ينطو على تحدى سلطة الدولة ، أو أمن المجتمع . فالتصوف والطرق الصوفية مثلاً ، تعتبر تطرفاً دينياً بالمعنى الحرفى للكلمة لأنها تختلف عما أعتادته أغلبية الناس فى المجتمع الإسلامى من حيث العقائد والعبادات . لكن التصوف ليس تطرفاً سياسياً لأنه لا ينطوى على تحد للسلطة ولأمن المجتمع . . لذلك لا يعتبره معظم الناس تطرفاً .

وطبعاً الذى يقيم الدنيا ولا يقعدها فى السنوات الأخيرة هو ظاهرة «التطرف الدينى السياسى» . . فلو لم يكن العنصر السياسى موجوداً فى مسألة التطرف الدينى لما اهتمت به الدوائر الغربية والمحافل الدولية ، ومراكز البحث العلمى ، وحكام العالم الاسلامى أنفسهم . فبعد ما حدث فى إيران لم تعد هذه الأطراف قادرة على تجاهل الظاهرة . . وبعد ما حدث فى مصر ـ اغتيال الرئيس السادات ـ ومن قبلها محاولة الاستيلاء على الحرم

المكى فى نوفمبر ١٩٧٩ تحول الاهتمام إلى ما هو أكثر من ذلك بكثير .

ماذا يعنى التطرف

التطرف بمعناه البسيط جداً هو الخروج عن الوسط ، أو البعد عن الاعتدال ، أو اتباع طرق فى التفكير والشعور غير معتادة لمعظم الناس فى المجتمع ، والايمان العميق بصحة هذه الطرق وصلاحها والاستعداد للتضحية فى سبيلها .

ومن هنا فانّ معنى التطرف هو شىء نسبى تماماً . فالأغلبية أو السلطة الحاكمة ، هى التى تصف غيرها بالتطرف ممن يختلفون معها فى التفكير أو الشعور أو السلوك اختلافاً واضحاً . ويصبح هذا الوصف دمغاً «بالانحراف» والخروج عن المقبول . وبالتالى فلابد من تقويم «الانحراف» ـ إما بالاقناع والاغراء أو العقاب . كل هذا من وجهة نظر السلطة .

والملفت لنظر الباحثين فى ظاهرة التطرف ، هو أن المجتمع أو السلطة الحاكمة فيه قد لا تنزعج كثيراً طالما أن التطرف ظاهرة فردية وليست جماعية ، وطالما أنها على مستوى التفكير والشعور وليست على مستوى السلوك . فالتطرف الفردى يمكن عزله بسهولة على أنه حالة هوس أو جنون ـ ويتراوح العزل هنا بين الاشفاق والتجاهل ، إلى الايداع فى إحدى المصحات العقلية أو إحدى المؤسسات العقابية .

أما الذى يزعج السلطة والمجتمع حقاً فهو أن يتحول «التطرف» من المستوى الفردى المتناثر إلى المستوى الجماعى المنظم ، ومن الشعور أو التفكير فقط إلى مستوى السلوك الظاهر .

حينما يحدث هذا التحول تشعر السلطة (بفرض أن السلطة تمثل المجتمع) بالخطر ، وتبدأ فى المقاومة والهجوم حفاظاً على نفسها وعلى المجتمع الذى تمثله .

ومن ناحية أخرى لا ينبغى أن ننخدع بظواهر الأشياء . فما قد يبدو تطرفاً دينيا قد يكون فى الواقع صيغة أيديولوجية للتعبير عن أوجاع حضارية وإقتصادية وإجتماعية وسياسية تعانى منها شرائح معينة فى المجتمع أكثر من غيرها . وبالتالى يصبح «التطرف الدينى» هو فقط صيغة واحدة من صيغ بديلة للاستغاثة والتعبئة والتحدى ـ كما سنرى .

ما الذى يدفع بعض الناس إلى التطرف ؟

طالما كان النظام الاجتماعى السياسى السائد فى أى مجتمع قادرا على مواجهة متطلبات الأغلبية الساحقة لأفراد الشعب ، واشباع احتياجاتهم الأساسية فلا خطر على هذا النظام من ظاهرة التطرف السياسى الجماعى المنظم. ولكن حينما يتعثر النظام القائم عن مواجهة المشكلات الداخلية أو الخارجية . . وحين يطول أجل هذا التعثر وتتفاقم تلك المشكلات . . فان أعداداً متزايدة من أفراد المجتمع تخلص إلى أن هناك عطباً أساسياً إما فى جوهر وفلسفة النظام أو فى أدائه ، أو فيهما معاً . ومن هنا يبدو أن البحث عن بديل يخرجهم ويخلص مجتمعهم من المشكلات المتفاقمة . وكلما اشتدت حدة المشكلات وتحولت إلى ما يشبه الأزمة أصبح البديل المطلوب مختلفاً تماماً عن النظام القائم . وكلما زاد اختلاف البديل المطلوب عما هو قائم ويمارس بالفعل ، أصبحنا بصدد ما يسمى «بالتطرف» .

التطرف ـ إذن ـ هو مؤشر أو إنعكاس لتعثر النظام السياسى الاجتماعى فى مواجهة الأزمات الداخلية أو الخارجية .

وتقول لنا نظريات علم النفس الاجتماعى أن الفشل يولد الاحباط . وأن الإحباط يخلق فى داخل الأفراد شحنات انفعالية عدوانية . وأن هذه العدوانية الداخلية قابلة إلى التحول إلى عنف خارجى فردى وجماعى .

طبعاً هناك مسالك وبدائل أخرى للتعامل مع الاحباط . وليس من

الضرورى أن يتحول إلى عدوانية ثم إلى عنف خارجى . من ذلك مثلاً ، احساس من يخبرون الاحباط أن هناك أملاً حقيقياً فى تجاوز الفشل الفردى أو فى إصلاح النظام السياسى الاجتماعى القائم ، الذى يؤثر فى حياتهم بطريق مباشر أو غير مباشر . ولكن مع غياب أو اندثار هذا الأمل فى الاصلاح والخلاص يصبح المناخ مهيئاً للتطرف .

إذا كان هذا النموذج التفسيرى للعدوانية والعنف مقبولاً ، فان السؤال يصبح : ما هى العوامل التى تؤدى إلى الاحساس الجماعى بالفشل ، ثم بالاحباط ، وبالتالى بالعدوانية ، ثم بالتطرف والعنف .

مقولة الفجوة بين الأمل والواقع

من المسلم به أن آمال الأفراد فى أى مجتمع تفوق فى معظم الأحيان ما يمكن انجازه . ولكن طالما ظلت الفجوة بين الأمل والواقع معقولة الحجم وثابتة على حجمها ، فإن الأفراد يقبلونها كاحدى سنن الحياة . ولكن حينما تتسع الفجوة فجأة ، وتستمر فى اتساعها فان ذلك يولد إحساساً بالفشل والإحباط ، ويؤدى إلى شحنات عدوانية داخلية : وهنا قد يلوم الأفراد إلى أن السبب فى الفشل لا يرجع اليهم وانما يرجع إلى التركيبة السياسية الاجتماعية الاقتصادية السائدة فى المجتمع من حولهم ، فإن الشحنات العدوانية الداخلية تتحول إلى تهيؤ واستعداد لاستخدام العنف ضد النظام السياسى الاجتماعى القائم ، وتصبح المسألة هنا مسألة بحث عن تكييف ايديولوجى وتنظيم ووسائل لتغيير هذا النظام .

مقولة العدالة التوزيعية

يقول لنا علماء الاجتماع أن الذى يحدد ما إذا كان الأفراد سيخلصون إلى

لوم ذواتهم أو إلى لـوم النظام السيـاسى الاجتماعى القائم على مـا يحدث من فشل وإحبـاط يتقرر فى ضوء معـادلة تـوزيع الثروة والسلطـة فى المجتمع . ويمكن حساب ذلك بمعـادلة بسيطة يستخـدمها الأفراد بـوعى أو بلا وعى وهم يقارنون أنفسهم بالآخرين :

العدالة التوزيعية = حجم استثماراتى المادية والمعنوية = نصيبى من الثروة والسلطة

حجـم استثمارات الشخص الآخـر المـادية والمعنوية = نصيبـه من الثروة والسلطة

فإذا تساوت إستثماراتى أو مجهوداتى مع مجهـودات الآخرين فإننى أتوقع أن يكون عائدى من الثروة والسلطة والتقديـر المعنوى متساوياً مع ما يحصل عليـه الآخرون . وإذا كـانت مجهوداتـى ضعف مجهوداتهم فإننى أتـوقع أن أحصل على ضعف عـائد كل منهـم . وإذا كـان مجهـودى نصف مجهـودهم فإننى أتوقع الحصول على نصف عـائدهم ، وهكذا . أى اختلال واضح فى تلك القاعـدة التوزيعية ينشأ عنـه شعور بـالظلم . فالقاعـدة لا تساوى بين الناس مسـاواة حسابية مطلقـة ، وإنما تساوى بينهم فى الفـرص ، وتساوى بينهم مسـاواة نسبية فى توزيـع الثروة والسلطة كـل حسب جهوده وكفـاءته وإنجازه . الاخـلال بالقاعدة يتحـول إلى شعور بالظلم . والشعـور بالظلم يتحـول إلى سخط ، والسخط يهيئ الفـرد للتمـرد والثـورة ، ويـدفعـه إلى «التطرف» وإستخدام العنف .

مقولة الحرمان النسبى

يقـول لنا علماء النفس والاجتماع أن هنـاك مبـدأ آخر متصـلاً بالمقـولتين السابقتين ، له تـأثيره الكبير فى إحساس الناس بالتبرم وعدم الـرضا ، حتى إذا كـانت أحوالهم المعيشيـة فى تحسن . هذا المبـدأ هو مـا يسمى «بالحرمـان

النسبى» فرغم أن شخصاً قد يكون أحسن حالاً مما كان عليه فى الماضى ، إلا أنه يرى آخرين تتحسن أحـوالهم بدرجة أكبر أو بمعدل أسرع منه . ويصبح الحرمان ـ طبعاً ـ أكثر حـدة إذا كانت أحواله لا تتحسن بينما تتحسن أحوال الآخرين . ويشتـد الحرمان أضعافاً مضاعفـة إذا كانت أحوالـه تتدهور بينما أحوال الآخرين فى تحسن مطـرد . الحرمان النسبى بدرجاتـه المختلفة يؤدى إلى الإحساس بالسخط . وذلك بدوره يخلق لـديهم تهيؤا لاستقبال واعتناق الأفكـار النـاقدة للنظـام الاجتماعى السيـاسى ، والـداعية للتمـرد عليـه ، والثورة ضده ، ويصبح الاستعداد للتطـرف واستخدام العنف مسألة واردة تنتظر الظرف الملائم .

حالة مصر والتطرف الدينى المعاصر

إن المراقب المتعمق للسـاحة المصرية يمكنـه بلا عنـاء أن يفسر ظاهـرة ما يسمى «بالتطـرف الدينى» فى ضـوء المقولات الثـلاث السابقـة . ولم تشهد مصر منذ الأربعينيـات مثلما شهدت خلال عقد السبعينيـات من اتساع لهذه الظاهـرة بكل ما تنطـوى عليه من عنف جماعى ومواجهـات دمويـة مسلحة واغتيالات ضد أجهزة وشخصيات الدولة المصرية .

وتشير بحوثنا الميدانية حول ظاهرة التطرف والعنف الدينى السياسى إلى مجموعـة من الشواهد والنتـائج التى تؤكد صـدق المقولات التى طرحنـاها سابقاً :

من ذلك مثلاً :

١ ـ زيادة موجة التدين بين الشباب فى السنوات التى أعقبت هزيمة ١٩٦٧ ، وهى الهزيمة التى كشفت عجز النظام المصرى خـاصة والأنظمة العربية عامة . وقد تضافرت الهزيمة مع اختناقات اجتماعية واقتصادية حادة فى السنوات التالية .

٢ ـ تحول هذه الموجة التدينية التى كانت هلامية وإنسجامية وغيبية فى البداية (أواخر الستينيات) إلى حركة سياسية تمردية ناقدة خلال السبعينيات . وأخذ هذا التيار الدينى السياسى العام يطرح بدائله الأيديولوجية لمواجهة أزمة المجتمع العربى بالعودة للأصالة الإسلامية وتطبيق الشريعة وإقامة النظام الاجتماعى الإسلامى العادل .

٣ ـ فى احشاء هذا التيار الاسلامى السياسى العام تكونت العديد من الجماعات المنظمة داخل الجامعات وخارجها . بعضها علنى يدعو إلى فكره سلمياً بالحكمة والموعظة الحسنة . وبعضها سرى يعمل تحت الأرض ويعد «لهم» ما استطاعوا من «قوة ومن رباط الخيل» ، وذلك توطئة لحرب ضروس على مجتمع «الشرك والجاهلية والفساد» .

٤ ـ حاول نظام الرئيس الراحل أنور السادات أن يستغل ذلك التيار الدينى ، ليضرب به القوى السياسية المناهضة له فى أوائل السبعينيات ، وخاصة من الناصريين والاشتراكيين والماركسيين . ونجح تكتيكياً ومرحلياً فيما أراد ـ أو هكذا بدا الأمر .

٥ ـ ولكن بعد خفوت تلك القوى المناهضة لحكم وفلسفة السادات ، بدأت الجماعات الدينية نفسها فى إظهار تبرمها بالحكم وبسياساته الأربع الرئيسية منذ منتصف السبعينيات ، وهى سياسات : الانفتاح ، والديموقراطية ، والتحالف مع الغرب ، والتصالح مع إسرائيل .

٦ ـ بدأت بعض هذه الجماعات الدينية المُسيَّسة تترجم تبرمها وسخطها إلى مواجهات مسلحة لإسقاط النظام أو لإضعافه . وكان أول هذه التحديات المسلحة بواسطة منظمة التحرير الإسلامى بقيادة الدكتور صالح سرية ، والتى أصبحت تعرف فى وسائل الإعلام باسم جماعة الفنية العسكرية ، وذلك فى شهر ابريل ١٩٧٤ . ثم تلتها جماعات أخرى تحت أسماء مختلفة وذات قيادات وأساليب متباينة . وسمعنا عن تنظيمات

مثل «حـزب الله» بقيادة وكيل النيابـة يحيى هاشـم ، و«جماعة المسلمين» بقيـادة طـه السماوى ، وجماعـة «المنعـزلة شعـوريـاً» بقيـادة عبـد المنعم الصبروتى و«التكفير والهجـرة» بقيـادة المهنـدس شكـرى مصطفى . وسمعنا عن «جند الرحمن» و«الجهاد» . . . وغيرها .

٧ ـ كـانت كل مواجهة دمـوية مع السلطـة المصرية أشد من سـابقتها . ففى حادث الفنيـة العسكرية كان عـدد المتهمين ٩١ شخصا (١٩٧٤) ، وفى حادث اختطاف ومقتل الدكتـور حسين الذهبى كان عدد المتهمين ٢٥٨ شخصـاً ، وفى أحداث سبتمبر ـ اكتـوبـر ١٩٨١ وصل عدد المقبـوض عليهم حـوالى ١٦٠٠ شخص (٩٠٠ قبل اغتيـال الـرئيس السـادات ، و٧٠٠ بعد الاغتيال) .

٨ ـ لم تجد محاولات الدولة المصرية فى محاصرة ظاهرة التطرف الدينى . فرغم كثـافـة الهجـوم الإعـلامى ، والملاحقـة ، والمحـاكمات والإعـدامـات وعقوبات السجن ، ظل الأتباع يهرعـون وينضمون إلى هذه الجماعات ـ كما تشهـد بذلك الأعـداد التى شاركت بطـريق مباشر أو غير مبـاشر فى المواجهـات العنيفـة مع السلطـة المصريـة . ويـرجع ذلك إلى استمـرار أزمات النظـام الداخليـة والخارجية ، وإلى الحصـاد الهزيل الـذى جلبته سياسات النظام الأربع .

من هم المتطرفون الدينيون فى مصر ؟

الذين انضموا إلى جماعات العنف الدينى السياسى فى مصر تغلب عليهم قسمات سوسيولوجية مشتركة أهمها :

١ ـ أنهم من الفئـات الشـابة فى العمـر ، وخـاصـة من هم فى العشرينيـات والثـلاثينيـات من أعمارهم وهى فئـات تتمتع بقـدر عـال من الطـاقـة والحيوية والقلق والمثالية .

٢ ـ إنهم من طلاب وخريجي الجامعات ، ومن أكثر العناصر تفوقاً وإنجازا ـ بدليل أن نسبة عالية منهم تدرس فى أو تخرجت فى كليات الطب والهندسة والصيدلة والفنية العسكرية ، وهذه كلها تشترط تحصيلاً دراسياً عاليا فى المرحلة الثانوية للالتحاق بها كما أن برامجها والدراسة فيها تتطلب درجات عالية من الذكاء والمثابرة والإنضباط .

٣ ــ إنهم ينحدرون من شرائح الطبقة الوسطى وخاصة الطبقة المتوسطة الدنيا ، أى طبقة صغار الملاك فى الريف والحضر وصغار التجار والموظفين الحكوميين .

٤ ــ إن غالبيتهم ولدت وقضت المرحلة الأولى من عمرها فى الريف أو فى المدن الصغيرة . . . . ولكنها حين التحقت بصفوف الجماعات الدينية كانت قد وفدت للمدن الكبرى ـ مثل القاهرة والاسكندرية وأسيوط والمنصورة ــ للدراسة أو للعمل . وفى هذه المدن الكبرى شهدت هذه العناصر الشابة متناقضات المجتمع المصرى وقتذاك بهولها وبشاعتها . وأحست فى خضم المدينة الكبيرة بالدونية والضياع والاستغراب . وأصبح الإسلام بالنسبة لها ملجأ وملاذاً وسبيلاً للخلاص من الضياع والحرمان والهوان بالنسبة لها كأفراد وبالنسبة لوطنها كمجتمع وأمة .

المفارقة الكبرى

هذه الملامح والخصائص تشير إلى أن ما نسميهم «بالمتطرفين» قد أتوا من صلب المجتمع المصرى ، ومن أهم شريحة فى الطبقات الوسطى . وهذه الشريحة كانت وستظل أهم مصدر للحيوية السياسية والاجتماعية فى مصر . إنها الشريحة التى أفرزت معظم زعماء مصر الوطنيين خلال القرن الأخير ، من أحمد عرابى والشيخ محمد عبده ومصطفى كامل ، وسعد زغلول ومصطفى النحاس ، وجمال عبد الناصر .

وخلاصة القول هي أن «متطرفى» اليوم فى مصر لم يهبطوا علينا من المريخ، أو يفدوا إلينا من مجتمع آخر ، ولم يأتوا حتى من «أطراف» المجتمع المصرى ـ ولكن من قلبه وصلبه .

والمتطرفون فى مصر اليوم شأنهم شأن المتطرفين المصريين السابقين ابتداء من أحمد عرابى ، ومروراً بالمتطرفين الثلاثة الذين سجلنا اعترافاتهم فى صدر هذا المقال (الشيخ محمد عبده ، وجمال عبد الناصر ، وأنور السادات) .

بل إن المفارقة التاريخية الساخرة هى اننا لو غصنا فى الظروف والملابسات والاشخاص التى أحاطت باغتيال السياسى المصرى أمين عثمان باشا ، واغتيال الرئيس المصرى أنور السادات لوجدنا أوجه شبه عديدة بين شخصين من الذين اشتركوا فى كلا الاغتيالين . كلاهما ضابط مصرى شاب، من الطبقة الوسطى الصغيرة ، يملأه السخط والغضب على ما يفعله القادة السياسيون فى بلاده ، ويطحنه الغلاء والحاجة والحرمان النسبى ، ويشعر فى قرارة نفسه أن هناك ظلماً فادحاً يقع بالوطن وبه شخصياً ، ويؤمن أن أحد سبل الخلاص هو التخلص من القيادة السياسية . فإذا لم يمكن إزاحتها من مقعد السلطة بالوسائل الديموقراطية السلمية التى بدت لكليهما مسدودة أو زائفة ، فلا بأس من التخلص من هذه القيادة بالاغتيال. الضابط المصرى الشاب الأول الذى اشترك فى اغتيال أمين باشا عثمان كان اسمه أنور السادات، والضابط المصرى الشاب الثانى الذى اشترك فى اغتيال الرئيس أنور السادات كان اسمه خالد الاسلامبولى .

الخلاصة

التطرف الدينى السياسى هو إستجابة طبيعية حادة لوجود أزمة اجتماعية حضارية حادة فى العالم العربى الاسلامى . لقد تعثر كثير من الأنظمة الحاكمة بمنطقتنا فى المواجهة الخلاقة للتحديات الخارجية وعلى رأسها

اسرائيل، والهيمنة الغربية ، وتكريس الاستقلال الوطنى ، وتأكيد هوية حضارية أصيلة . وتعثرت هذه الأنظمة فى التعامل الخلاق مع القضية الاجتماعية السياسية الداخلية ، وفشلت بدرجات مختلفة فى تلبية المطالب الرئيسية لقطاعات المجتمع المختلفة - وفى مقدمتها الحاجات الأساسية للطبقات الدنيا، والمشاركة العادلة فى الثورة والسلطة للطبقات الوسطى .

التعثر الخارجى والفشل الداخلى تآزرا وتفاعلا معاً منذ نهاية الستينيات ليخلقا المناخ الخصب لنمو الحركات المتطرفة فى عالمنا العربى الإسلامى ، واختلطت فى هذا المناخ القائم هموم الفرد مع هموم المجتمع ، وتداخلت مشكلات الذات مع مشكلات الوطن ، وأصبح البحث عن طريق للخلاص النفسى والشخصى هو فى الوقت ذاته بحثاً عن طريق للخلاص الاجتماعى والقومى .

وكان شباب الطبقة الوسطى هم أكثر قطاعات المجتمع التى تقاطعت عندها : الأزمة الخارجية مع الأزمة الداخلية للمجتمع العربى الإسلامى ، وهموم الأفراد مع هموم الأوطان . لذلك كانوا أكثر الفئات إحساساً «بالألم» . وبفضل ما يتمتعون به من طاقة وطموح ومثالية وقلق ، كانوا أكثر الفئات تهيؤا لتحويل الآلام إلى حركة سياسية إحتجاجية ساخطة لتحدى النظام الاجتماعى السياسى بأعنف الوسائل بصرف النظر عن عقلانيتها .

الفصل الثانى

بين عبد الناصر والسادات

* هل تصح المقارنة بين عبد الناصر والسادات
* الفلسفة العامة لعبد الناصر والسادات
* المسألة الاجتماعية بين عبد الناصر والسادات
* التوجهات التنموية بين عبد الناصر والسادات
* عروبة عبد الناصر وعروبة السادات

هل تصح المقارنة بين عبد الناصر والسادات (*) ؟

جمال عبد الناصر وأنور السادات هما نتاج جيل واحد ، من نفس الأرض المصرية ، ومن نفس الطبقة الاجتماعية ، ومن نفس الخلفية التعليمية والمهنية .

كلاهما اشترك فى تنظيم الضباط الأحرار . كلاهما كان ساخطاً على النظام الملكى ، بكل ما كان يمثله ذلك النظام اجتماعياً وسياسياً واقتصادياً . كلاهما كان يائساً من اصلاح ذلك النظام بعد أن بلغ العفن بالنظام مبلغاً كبيراً . كلاهما ــ مع ذلك ــ كان مملوءاً بالأمل فى انقاذ مصر ، ورفع شأنها . وكانت تلك معادلة ثورة يوليو : السخط واليأس والأمل .

جمال عبد الناصر فجر تلك المعادلة ، بعناصرها الثلاثة . وكانت الثورة ، التى قادها فى عقديها الأول والثانى . أنور السادات وجه مسيرتها فى العقد الثالث . وقد تسلم حسنى مبارك دفتها فى بداية العقد الرابع .

هذا المقال ليس عن العقد الرابع وليس عن حسنى مبارك . ولكنه عن جمال عبد الناصر وأنور السادات .

هل تصح المقارنة بين عبد الناصر والسادات ؟

المقارنة بين زعيمين ، مثل عبد الناصر والسادات ، شأنها شأن أى مقارنة أخرى : فهى يمكن أن تكون مقارنة موضوعية عادلة ، وهى يمكن

(*) الجمهورية ٧/ ١٠/ ١٩٨٢

أن تتحول إلــى مفاضلات وهميـة ، أو انكى من ذلك يمكن أن تتحول إلى مهاترات جارحة .

وبما أننـا فى هذه الأيـام نحتفل بذكـرى رحيل الزعيمين ، فـلا بأس من الاجتهاد الهادف نحو مقارنة موضوعية عادلة .

لقد حـذر الرئيس حسنى مبارك من المقـارنات المغرضـة بين الزعيمين . وما كـان حسنى مبارك ليطلق هـذا التحذير لـولا أنه شعـر وسمع وقرأ مثل هذه المقارنات المغرضة .

ومـا دام الكثيرون فى داخل مصر وخـارجهـا يقـارنـون بين حقبتى عبـد الناصر والسادات ، سواء أردنا أو لم نرد ، فلنجعل هـذه المقارنة موضوعية بقـدر الامكـان ، ولنبتعـد عن المهـاتــرات الجارحـة ، وليكن هـدفنـا هـو استخـلاص الــدروس من مــاضى الحقبتين لكى نتسلح بها فى حــاضرنـا ومستقبلنا .

ما نـريد أن نقوله هـو أن المقارنة جائزة، وانها تحدث فى أذهـان الناس ، وتجرى على ألسنـة معظمهم وتجد طريقهـا بشكل سـافر أو مستتر إلى أقـلام الكتـاب . وليس يضير ذكرى عبـد النـاصر أو ذكـرى السادات أن يتنـاول الناس حقبتى حكمهما بالنقد والتقييم .

لقد حكم عبد الناصر مصر لمدة ثمانية عشر عاماً ، وحكمها السادات لمدة أحـد عشر عـامـاً . وفى أثناء ولايـة كل منهما تبلـورت مفـاهيم وتكـرست سيـاســات وممـارسات ، صبغت حقبـة حكمهما لمصر ، واثـرت فى المنطقـة كلها .

ولأن البشر يتأثرون سلبا أو ايجاباً بمفاهيم الحاكم وسياساته وممارساته ، فمن الطبيعى أن تستقطب آراؤهـم ومشاعرهم مع أو ضد هذا الحاكم . ومن يتجاهل هذه المقولة البسيطة فهو يتجاهل قوانين السياسة والاجتماع .

والذين استفـادوا من مفاهيم وسياســات وممارسات الحقبة النـاصرية لا

يرون إلا انجـازاتها ، ويتغنون بـأمجادها ، ويترحمون على أيـامها . فـالحقبة النـاصرية بـالنسبة لهم هى معـارك التحريـر المجيدة : التخلص من النظـام الملكى الفاسد، وإجلاء الإنجليز ، ومقاومـة الأحلاف الأجنبية ، ومعاداة الامبريـاليـة والصهيـونيـة ، وانشاء حـركـة عـدم الإنحيـاز ، وتأميم قنـاة السويس، وقيادة الحركة القومية العربية .

والحقبـة النـاصريـة فى نظـرهم لا تعنى إلا معـارك بنـاء مجتمع الكفـايـة والعـدل : بنياء السـد العـالى والقطـاع العـام ، والتصنيع ، والقضـاء على الاقطـاع، والاصلاح الـزراعى ، وإعادة تـوزيع الثـروة والسلطة لصـالح الطبقات الكادحة من العمال والفلاحين والطبقات الوسطى .

الذين استفـادوا من مفاهيم وسيـاسات وممارسـات الحقبة السـاداتية لا يرون أيضا إلا إنجازاتها ويحاولـون الدفاع عن دعائمها ورمـوزها . فالحقبة الساداتية بالنسبة لهم هى نصر اكتوبـر العظيم ، وسيادة القانون ، والتحول إلى الديمـوقراطية التعدديـة ، ونهاية الحراسات والاعتقـالات ، والانفتاح على العـالم ، واقتـلاع النفـوذ السـوفيتى ، ومبـادرة السـلام مع إسرائيل والتصالح معها

والحقبة الساداتية ، لمن استفادوا منها وما يزالون يحملون أعلامها ، هى الحقبـة التى أنهت نظـام «الحاكم الـواحـد ، والحزب الـواحـد ، والكـاتب الواحد»

حرب الخنادق فى السياسة المصرية

هذا الجزء من السجال بين أنصار الحقبتين يتركـز حول انجازات كل من الزعيمين . ورغم ما فيه من بعض المبـالغة من أنصار هذه الحقبة أو تلك إلا أنه فى حد ذاته لا ضرر منه . ولكن ليت الأمر توقف عند هذا الحد .

فالشـائع أكثر من ذلك هـو أن أنصار كل حقبة ليسـوا على إستعداد لأن

يتذكروا أخطاء الحقبة التى يحملون أعلامها . هناك غياب يكاد يكون كاملاً لأى مراجعة موضوعية نقدية جادة من أصحاب كل حقبة . وفى المقابل هناك استعداد وحشى لنهش الحقبة التى لم يستفيدوا منها ، أو أضيروا من سياساتها ، أو قاسوا من ممارساتها ، هذا الاستعداد الوحشى للنهش والافتراء حول العلاقة بين أنصار الحقبتين إلى حرب خنادق سياسية واعلامية .

فالحقبة الناصرية ، فى نظر معظم من استفادوا أو شاركوا فى الحكم أثناء ولاية الرئيس السادات ، لا تعنى إلا الحراسات والاعتقالات ، ومراكز القوى ، والتغلغل السوفيتى ، والهزيمة ، والانغلاق ، والخراب الاقتصادى . ولا يبدو لهذه الحقبة فى نظرهم أى انجازات .

وفى المقابل ، لا يرى من استفادوا من الحقبة الناصرية فى حكم الرئيس السادات الا عصر الانحطاط والفساد والنهب ، والتفريط فى السيادة الوطنية، والتبعية للغرب ، والتخلى عن دور مصر القيادى فى الوطن العربى، وإهمال مصالح الطبقات الكادحة ، وتخريب الاقتصاد ، وترويج النهم الاستهلاكى والأنشطة الطفيلية ، والاستدانة من الخارج ، والمسخ الحضارى. ولا يبدو للحقبة الساداتية فى نظرهم أى إنجازات تستحق الذكر أو التنويه .

من حرب الخنادق إلى حرب الابادة الفكرية

إن معظم من يقودون حرب الخنادق على الساحة الوطنية تحت أعلام ناصرية أو ساداتية هم ممن فى خمسينيات العمر أو يزيد . وقد اشتد التراشق بينهم فى الشهور الأخيرة بشكل متصاعد ، ويوشك أن يحول حرب الخنادق إلى حرب «إبادة فكرية» .

وهم فى هذه الحرب ينسون أن أكثر من نصف سكان مصر قد ولدوا بعد

ثورة ١٩٥٢ . وأن معظم هـؤلاء لم يعيشوا الحقبـة الناصرية ، أو شهـدوها فقط كأطفـال . وهم ينسـون أن شبـاب مصر فى حـاجـة إلى معـارك الحوار وليس إلى حروب الإبادة الفكرية .

فى معـارك الحوار ، قـد يبدأ كـل طرف من نقطـة مختلفـة ، ولكنـه على استعـداد لـرؤية وجهـة نظـر الآخـر ، وكل طـرف مهيأ لامكانيـة الاقنـاع والاقتناع ، فى سعى مخلص لتوسيع رقعة «الحقيقة» .

أما فى معارك الإبادة الفكرية ، فلا مكان لوجهة نظر أخرى ، ولا فرصة لتفسير بديل لاحداث الماضى والحاضر .

فى معارك الإبادة الفكرية هناك فقط وجهة نظر واحدة ، وتفسير واحد ، وكل من يدعى غير ذلك فهو كاذب ، أو موتور ، أو مأجور .

معارك الإبادة الفكرية هى ثنائيات استقطابية : أبيض وأسود ، «انفتاح» أو «انغلاق» ، قطاع عام أو قطاع خـاص ، «اشتراكية خراب» أو «رأسمالية فساد» . . وقس على ذلك ثنائيات أخرى كثيرة .

معارك الإبادة الفكرية هى معارك «صفـرية» ، يعتقد المتعاركون فيها أن التزحـزح عن أى موقع أو موقف معنـاه الهزيمة الفانيـة . ولكن «الحق» هو الضحية الكبرى فى معارك الإبادة الفكريـة ، وشباب هذا الوطن هو الخاسر الأكبر من جراء هذه المعارك .

شبـاب مصر هـم نصف المجتمع ونصف الحاضر ، وهـم كل المجتمع وكل المستقبل فى غضون سنـوات قليلة قادمـة ، ومعارك «الإبادة الفكـرية» بين «الكبار» تبلبل «الشبـاب» ، وتحطم القيم ، وتفقدهـم الثقة فى مجتمعهم وفى قياداتهم .

● الخيارات والمناهج

الشبـاب فى حـاجـة إلى معـارك الحوار الهادف الـذى ينير أمـامـه طـريق

المستقبل . وإذا كان لنا أن نقارن بين عبد الناصر والسادات فلتكن المقارنة محكومة بتوضيح فلسفة كل منهما ، والظروف الموضوعية التى أملت هذه الفلسفة وما ترتب عليها من سياسات ، وما حققته من إنجازات ، وما شابها فى التطبيق من أخطاء .

لتكن المقارنة محكومة بتوضيح معدلات الأداء لكل حقبة ، والشرائح الاجتماعية التى أفادت واستفادت من هذا الأداء . وليكن معلوماً ومقبولاً أن كل فلسفة ، يترتب عليها خيارات سياسية واجتماعية تفيد البعض ولا تفيد البعض الآخر . وقد لا يتساوى البعض والبعض الآخر فى العدد أو القوة . المهم أن يكون للبعض والبعض الآخر فرصة التعبير والتنظيم والحوار والتنافس فى إطار من الديموقراطية وسيادة القانون .

لقد كان عبد الناصر يمثل فلسفة وخياراً ومنهجاً . وكان السادات يمثل فلسفة أخرى ، وخياراً آخر ، ومنهجاً آخر . وكان لكل منهما انجازاته وأخطاؤه . ومن حق الأجيال الجديدة أن تقارن بينهما موضوعياً ومن حقها أن تختار فلسفة هذا أو ذاك ، أو ترفضهما ، أو توفق بينهما فى مشروع قومى حضارى جديد .

الفلسفة العامة لعبد الناصر والسادات (*)

طرحنا فى مقال سابق مقولتين الأولى هى امكانية المقارنة بين عبد الناصر والسادات ، حيث إن كلا منهما حكم مصر لسنوات طويلة، وترك بصماته على خريطة المجتمع والمنطقة وعلى علاقات مصر الخارجية . .

والمقولة الثانية هى ضرورة أن تكون مثل هذه المقارنة موضوعية وعادلة وبعيدة عن المهاترات وعن ألوان التجريح الشخصى لكلا الرئيسين الراحلين . .

وقد أكدنا أن المقارنة بين حقبتى عبد الناصر والسادات ، تدور فى عقول الناس وعلى ألسنتهم ومن خلال أقلام بعضهم، فى كل الأحوال سواء أردنا أم لم نرد وقلنا أنه مادامت هذه المقارنة تحدث، فينبغى ترشيدها من ناحية ، وينبغى توظيفها لخدمة الحاضر ولبناء المستقبل من ناحية أخرى . . وقد أدركت منذ البداية أن محاولة المقارنة الموضوعية الهادفة ستغضب الكثيرين من أنصار هذه التجربة أو تلك ، ومع ذلك فان إحدى الوظائف الاجتماعية للمثقف فى وطنه هى أن لا يتردد عن الاجتهاد فى أى مجال يشعر فيه أن لديه ما يقدمه خدمة للصالح العام . .

(*) الجمهورية ، ١٤/ ١٠/ ١٩٨٢

إن من يطالع الصحافة المصرية (الحزبية وغير الحزبية) فى الشهور الأخيرة لا يملك إلا أن يخرج بنتيجة مفزعة ، أشرنا إليها فى الاسبوع الماضى . . وهى أن النقاش حول عبد الناصر والسادات ، قد تحول من الحوار الهادف ، إلى ما يشبه (حرب الخنادق) ثم تحول ـ أو كاد أن يتحول إلى حرب (ابادة فكرية) إن ما أحاوله فى هذه المقالات هو العودة إلى الحوار المستنير . . .

التجربة الشخصية

لقد أوضحنا أن أنصار كل حقبة والمدافعين عنها ، والذين يرفعون أعلامها ، هم ممن شاركوا أو استفادوا من هذه الحقبة أو تلك وهذا شىء طبيعى . والاستفادة هنا لا تعنى فقط الاستفادة المادية وإنما أيضاً تشمل الاستفادة المعنوية والأدبية ، وتشمل الاشباع الوطنى والقومى .

وقد ورد لى رسالة من قارئ يقول فيها (إنك كأى مصرى لا بد أن تكون قد استفدت أو اضرت من حقبة عبد الناصر أو من حقبة السادات . . فلماذا تعتقد أنك ستكون أكثر موضوعية ونزاهة فى المقارنة بينهما) ؟

وبدون تبديد لوقت القارئ فى أمور شخصية فأننى اقرر أننى كغيرى من الآلاف من أبناء الفلاحين قد استفدت من الحقبة الناصرية التى فتحت لى مجالات التعليم على مصراعيها فى الخمسينيات والستينيات وربما لم تكن مثل هذه الفرصة تتاح لى لولا قيام الثورة المصرية فى يوليو ١٩٥٢ . .

لكن هذا التعليم نفسه ، وخاصة فى ميدان العلوم الاجتماعية ، هو الذى يدفعنى إلى التدقيق والتحليل والتقييم لكل ما يحدث على الساحة الوطنية المصرية ، وعلى الساحة القومية العربية . . وليس لدى إدعاء بالموضوعية الكاملة . ولكن لدى إدعاء بأننى أجتهد لكى أكون موضوعياً ، وللمجتهد

أجـران إن أصـاب ، وأجـر واحـد إن لم يصب . . ويكفى هـذا القـدر من الحديث عن الذات . .

الفلسفة العامة لعبد الناصر

عبد النـاصر والسادات هما من أبنـاء جيل واحد ، وينحـدران من نفس الطبقة الاجتماعيـة ، وكانـا رفيقى نضال ضد العهـد الملكى البائد ، وكـانا عضويـن فى مجلس قيادة الثـورة وظلا يعمـلان معاً طـوال ثمانية عشر عـاماً (١٩٥٢ ــ ١٩٧٠) فكيف تـوجـد كل هـذه الخلفيـة المشتركـة ، وكل هـذا التوازى والتقاطع فى سيرتهما الشخصية ثم يتبع كل منهما فلسفـة عامة مختلفة عن الآخر؟!

والإجابـة على السؤال تبـدأ من أن الفترتين الزمنيتين مختلفتـان ، وهيكل المجتمع المصرى فى كل فترة يختلف عن الفترة السـابقـة ، وكـذا التحديـات المطروحـة فى كل فترة داخلياً وخارجيـاً وكل هذا يـدخل فيما يمكن تسميته بالظروف الموضوعية التى تخرج عن إرادة الحاكم أى حاكم .

لكن الإجـابـة لا تكتمل إذا مـا توقفنـا فقط عنـد حـدود تلك العـوامل الموضـوعية . هنـاك بالاضـافة إليهـا العـوامل الذاتيـة والشخصية ، فهـذه الأخيرة تكوّن إدراكـات الحاكم وتحدد تفضيلاته مـن بين ما توفـره الظروف الموضوعية من خيارات عديدة .

بل إن الحاكم قد لا يـرى أحياناً كل الخيـارات المتاحة أمـامه ، بتأثير من يحيطون به من معاونين ومرؤوسين . فهؤلاء هم بمثابة الحراس أو البوابين ، الذين يتحكمون فى تـدفق المعلومات ، أو فى تشويهـا ، أو فى «تزويقها» . وقد يكـون إستعداد الحاكم نفســه محدوداً للقراءة والاطـلاع أو للاستماع إلى وجهات النظر المتباينة وقد يبـالغ من يحيطون بالحاكم فى تهويل المخاطر أو فى الاستخفاف بها .

ما نريد أن نخلص إليه هو أن الحاكم فى النهاية إنسان مثل باقى البشر . . فله تاريخه الشخصى وله خلفيته الطبقيـة التى قد يظل أسيراً وخادماً لها ، أو قد يدير لها ظهره مفضلاً أن يتجاوزها لخدمة طبقات أدنى ، أو لخدمة طبقات أعلى ، والحاكم كأى إنسان يتأثر بكميـة ما يتساقط عليه يوميـا من معلومات سواء من أفراد اسرته ومن أصدقائه أو من معاونيه أو ممن يختار التحالف معهم إقليمياً وعالمياً . . .

وقد اضطلع عبد الناصر بمهام الحكم وهو فى مقتبل الثلاثينيات ، أى أنه كان فى ذروة شبـابه . . والشبـاب فى حد ذاتـه يعنى المثالية اللهفة والطموح والتحدى . .

كان عبد الناصر من الجيل الغاضب الذى تبلور وعيه السياسى من خلال التيارات الفكـرية للأحـزاب والتنظيمات السياسية الغـاضبة ، والتى لم تكن جزءاً من السلطة فى العهد الملكى . وكان عقد الأربعينيات بالذات يمثل قمة هذا الغضب وكانت الروافد الفكـرية التى تساقطت على عقل عبد الناصر فى تلك السنوات هى :

* مصر الفتاة (حزب مصر الاشتراكى فيما بعد) .
* الاخوان المسلمون
* الحزب الوطنى القديم
* الطليعة الوفدية
* الفكر الماركسى

وقـد كـانت مجمـوعـة الضبـاط الأحـرار هى خليط من القـارئين أو من المؤمنين بهذه الأدبيات . . ورغم مـا قد يبـدو بين هذه الـروافد الفكـرية من تناقض مثل فكر الاخوان المسلمين والفكـر الماركسى إلا أنه كان يجمع بينهما جميعاً نقـدها الاجتماعى اللاذع للنظام الملكى القـائم . . وكان يجمع بين من

يروجـون لهذه الأفكار صفـات الجدية ، والاستعـداد للتضحية والنـزاهة ، وعدم التورط أو التلوث فى لعبة السباق على كراسى الحكم . .

والمتأمل لكل التوجهات الرئيسية للحقبـة الناصرية يمكنه أن يجد البذور الجنينية لكل توجـه فى واحد أو أكثر من هذه الروافد الفكـرية التى ازدهرت فى الأربعينيات وأوائل الخمسينيات . . ففكرة الاصـلاح الزراعى ، مثلاً ، نبتت وترعرعت فى أدبيات مصر الفتاة والطليعة الوفدية . .

كـذلك كـانت أفكـار التأميـم والعـدالـة الاجتماعيـة من أركـان الفكـر السيـاسى لكل من مصر الفتاة والاخـوان المسلمين ، على التوالى . . وكـان التأكيـد على الاستقلال الـوطنى ومعاداة الاستعمار هـو القضية الـرئيسية ، وربما الـوحيدة التى انشغل بها الحزب الـوطنى (القـديم) وكان التأكيـد على دور مصر العـربى وعلى مبـدأ الحياد بين الكتل العـالميـة المتصـارعة ، ونبـذ الاحـلاف من الأفكار التى روجت لها كل من الطليعـة الوفـدية والاخـوان المسلمين ومصر الفتاة .

كـانت عبقـرية عبد النـاصر انه فى خـلال السـنوات القليـلة التى أعقبـت الثـورة نجـح فى أن ينسـج من هـذه الـروافد العـديدة فلسفة عـامة لاقت قبولاً جماهيريـا واسعاً داخل مصر وفى الـوطن العربى ، وفى العالم الثالث . .

وكانت الخطوط العريضـة لهذا النسيج المتكامل هى : الاشتراكية كنظام اجتماعى اقتصادى فى الداخل ، والقـومية العربية والوحـدة كمحور لنشاط مصر وسياستها الاقليمية ، والحيـاد الإيجابى ومعاداة الاستعمار والصهيونية كركيزة لنشاط مصر وسياستها الدولية . .

وقد وجدت هذه الفلسفة أشمل وأوضح تعبير عنها فى صفحات الميثاق (١٩٦١) . وكانت آليات تطبيق هذه الفلسفـة هى جهاز الدولة والتخطيط الشامل والقطاع العام وشخصية عبد الناصر نفسه بما لها من صفات قيادية ،

وبكل قدراتها على مخاطبة الجماهير والهاب حماسها وسرعة تعبئتها فى داخل مصر وعلى مستوى الوطن العربى . .

الفلسفة العامة للسادات

ماذا عن الحقبة الساداتية ، وفلسفتها العامة ، واختياراتها الاجتماعية والقومية والعالمية ؟!

بادئ ذى بدء كان أنور السادات بدوره وفى شبابه نتاجاً أمينا لعقد الأربعينيات ، ومتأثراً بنفس الروافد الفكرية التى تساقطت على عبدالناصر . . ولكنه عندما اعتلى سدة الحكم ، كان فى الخمسينيات من عمره، وكانت تلك الروافد الفكرية قد تقادمت ، وبهت لونها ، وفقدت الكثير من حرارتها .

وأهم من ذلك جاء أنور السادات إلى الرئاسة لا كثائر غاضب ، ولكن كجزء من نخبة كان قد مر عليها فى السلطة أكثر من ثمانية عشر عاماً وكان قد رأى وخبر ما يحدث أحياناً للمبادئ والأفكار الثورية من تشوه أو ما يصادفها من تعثر ، أثناء التطبيق والممارسة .

وجاء أنور السادات إلى الرئاسة ومصر جريحة مهزومة ، يجثم على صدرها وعلى أرضها كابوس احتلال اسرائيلى بغيض ، استنزف قدراً كبيراً من مواردها فى المجهود الحربى ، وتوقفت خطط التنمية الطموحة . لكنه فى السنوات الثلاثة الأولى ظل يستمد شرعيته أساساً من خلافته لعبد الناصر ، وظل مبقياً على التوجهات الرئيسية للناصرية ، مع تعديلات جزئية محدودة استلزمتها الضرورة الموضوعية القصوى . . إلى أن اتخذ قرار الحرب فى اكتوبر ١٩٧٣ وكان الأداء فيها رائعاً . . وأحس الرجل ـ ومعه كل الحق ـ أن ذلك الإنجاز الهائل فى اكتوبر يبرر شرعية مستقلة ، تعطيه حرية الحركة النفسية والسياسية . .

لـذلك شهدت السنوات الأربعة التـالية (١٩٧٤ ــ ١٩٧٧) توجهـات جديدة، تحمل بصمات السادات ورؤيته داخلياً ، وإقليمياً ، وعالمياً .

هذه التـوجهات تبلـورت فى أربع سياسـات مترابطة متكـاملة ، هى : **الانفتـاح الاقتصادى ، والـديموقـراطيـة التعدديـة داخلياً ، والتصـالح مع إسرائيل إقليمياً ، والوفاق مع الغرب ، وخاصة الولايات المتحدة عالمياً . .**

وكما حققت سياسات عبد النـاصر من نجاح وكما أصابها من تعثر ، فإن سياسات السادات الأربعة كانت ذات سجل مختلط من التوفيق والفشل . . إن الاختلاف الكيفى بين توجهـات الحقبتين لا يمكن ان تخطئه عين المراقب المحايـد ، ولا يمكن أن ينكره من استفادوا أو اضيروا ويحتـاج تفصيل هذه الفروق إلى مقالات أخرى . .

المسألة الاجتماعية بين عبد الناصر والسادات (*)

بقدر أوجه الشبه العديدة بين عبد الناصر والسادات فى اسلوب الحكم ، بقدر ما كان بينهما من خلاف واختلاف فى النظرة والممارسة حيال «المسألة الاجتماعية» والذى نقصده «بالمسألة الاجتماعية» هنا هو طبيعة العقد الاجتماعى بين الحاكم والمحكوم ، وهو ليس عقداً قانونياً مكتوباً ، ولكنه تفاهم ضمنى ، نستدل عليه من لغة الخطاب الاجتماعى ، ومن أسلوب حياة الحاكم ، ومن التشريعات والممارسات التى تؤثر فى توزيع الثروات والأرزاق بين فئات المجتمع ، ومن القيم والمعايير التى يدعو إليها الحاكم ، وتروج لها وسائل الاعلام .

هذا العقد الاجتماعى الضمنى بين النظام الحاكم وبين المجتمع ، قد يصطفى قصدا فئات معينة على فئات أخرى وقد تؤدى ممارساته الفعلية من حيث يقصد أو لا يقصد ـ إلى تغليب أو تكريس مصالح شريحة إجتماعية على حساب مصالح الشرائح الأخرى . لذلك ما هى إلا سنوات قليلة حتى يتبلور «تحالف إجتماعى» أو «ائتلاف إجتماعى» معين حول الحاكم ونظام حكمه . ويصبح هذا «التحالف» هو القاعدة الاجتماعية السياسية التى يستند إليها النظام . وفى مقابل هذا «التحالف الاجتماعى» ينشأ عادة وبشكل تلقائى وتدريجى «تحالف إجتماعى مضاد» من القوى والفئات

(*) الاهرام الاقتصادى ، ٢٢/ ١١/ ١٩٨٢

التى اضيرت من توجهات النظـام المبدئية أو ممارساتـه الفعلية . والأطراف التى يتكـون منها «التحـالف الاجتماعى» للحاكم أو «التحـالف الاجتماعى المضاد» ليست ثابتة أو جامـدة ، وإنما يطرأ عليها التغير والتبدل طبقاً لعملية التقييم الـدائم التى تقوم بها هـذه الأطراف . فمنهـا من يبدأ بـالانضمام إلى التحـالف الاجتماعى للنظـام ، ثم تتغير مصـالحه ، فيهجـر هـذا التحـالف لينضم إلى التحالف المضاد ، وقد يحدث العكس .

● التحالف الاجتماعى فى نظام عبد الناصر

التوجهات الاجتماعية لعبد الناصر فى أوائل الخمسينيات كانت توجهات اصلاحيـة للنظم الذى ورثهـا عن العهد الملكـى . وقد يندهـش الكثيرون من الأجيال الشابة أن يعلموا أن القوانين والاجراءات التى صدرت فى السنوات الأولى للثورة كان هدفها الأساسى هو زيادة فعالية النظام الرأسمالى الموروث عن العهد الملكى . حتى قـانون الاصلاح الزراعى الـذى صدر فى الأسابيع الأولى للثورة كانت أحـد أهدافه هو تحويل كبار مـلاك الأرض الزراعية إلى **«رأسماليين صناعيين»** . فـالاستيلاء على جـزء من أمـلاكهم وتوزيعهـا على المعـدمين من الفـلاحين كـان مقـابـل تعـويض مـالى معقـول ، على أمل أن يستخـدمـه كبـار الملاك فى استثماره فى الصنـاعـة . كـذلك سنت الثـورة فى سنواتها الأولى **عدة قوانين لتشجيع رأس المال الوطنى والأجنبى على الاستثمار فى الصناعة** ، وهى قـوانين أشبه بالقـوانين التى صدرت بعـد ذلك بعشرين سنة والتى عرفت فى الحقبـة الساداتية باسم **قوانين الانفتاح** (وأهمها القانون ٤٣ لسنـة ١٩٧٤) . وحتى عنـدمـا اتخذت الثـورة اجـراءات «التمصير» بالاستيلاء على الشركات الأجنبية فى أعقـاب العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦ ، فقـد كـان القصـد هو نقـل ملكية وأنشطـة تلك الشركـات إلى الـرأسماليـة الـوطنية . وأنشأت الثـورة مـا كان يسمى وقتهـا **«بالمجلس الـدائم للانتاج»**

و«المجلس الدائم للخدمات»، لتشجيع النشاط الرأسمالى الانتاجى الذى يساعد على تكريس الاستقلال الوطنى من ناحية ، ولضمان العدالة فى توزيع الخدمات الأساسية على أغلبية المواطنين من ناحية أخرى .

ولكن «الرأسمالية الوطنية» لم تستجب لما كانت الثورة تأمله وترجوه . فهى إما أحجمت عن الاستثمار فى الاقتصاد القومى كلية ، أو استثمرت فقط فى الأنشطة التجارية والطفيلية طوال الخمسينيات . والسبب فى هذا الاحجام كان يرجع إما لعدم اطمئنانها لمن فى أيديهم مقاليد السلطة السياسية (الضباط الأحرار) ، أو لرغبتها فى الاثراء السريع من خلال الصفقات التجارية والمضاربات العقارية . وأدى اخفاق الرأسمالية المحلية عن القيام بدورها فى تنمية الاقتصاد القومى إلى دخول الدولة التدريجى فى مجالات التصنيع فى أواخر الخمسينيات ، من خلال جهاز جديد سمى «بالمؤسسة الاقتصادية» . ولكن فلسفة الدولة ظلت إلى ١٩٦٠ هى المنهج الرأسمالى الاصلاحى . ولم يكن هناك إلى ذلك الوقت أى حديث ذا بال عن **«التأميم»** أو **«الاشتراكية»** . وأدى نجاح «المؤسسة الاقتصادية» من ناحية ، واستمرار اخفاق الرأسمالية المحلية وأنشطتها الطفيلية من ناحية أخرى إلى اتخاذ **الاجراءات الاشتراكية فى أوائل الستينيات** . وبتلك الاجراءات أصبحت الدولة من خلال القطاع العام تسيطر على الاقتصاد القومى سيطرة شبه كاملة ، وأخذت بسياسة **التخطيط الشامل**، وبتنفيذ أول خطة خمسية (١٩٦٠ ـ ١٩٦٥) ، وسنت العديد من القوانين التى أدت إلى **إعادة توزيع الثروة الوطنية والدخل القومى لصالح الطبقات الدنيا والوسطى** .

هذه الاجراءات الاشتراكية فى الستينيات ، مع الاجراءات الاصلاحية فى الخمسينيات ، مع توجهات النظم الأخرى العربية والدولية ، أدت إلى تبلور تحالف إجتماعى عريض إلتف حول نظام عبد الناصر . وظل هذا التحالف مؤيداً له ومتماسكاً من خلفه إلى حرب ١٩٦٧ . وكانت الشرائح

الاجتماعية لذلك التحالف هي الفلاحين والعمال وأبناء الطبقات الوسطى ، أى الفئات التي استفادت فائدة قصوى من ممارسات النظام الناصرى فى السنوات الخمس عشرة الأولى للثورة . لقد فتحت الثورة أمام هذه الفئات قنوات الحراك الاجتماعي إلى أعلى من خلال التوسع فى التعليم والتصنيع والخدمات والعمالة ، ومن خلال آليات إعادة توزيع الثروة بالاصلاح الزراعي . وتحديد ايجارات المساكن ، والتمصير ، والتأميم .

فى مقابل هذا التحالف الاجتماعى الناصرى ، كان هناك **تحالف إجتماعى مضاد . بدأت نواة هذا التحالف المضاد فى الخمسينيات بكبار الملاك** (أو الاقطاعيين كما دأبت الصحافة على تسميتهم) **وبالسياسيين القدامى** من رجال أحزاب ما قبل الثورة . ثم انضم إلى التحالف فى منتصف الخمسينيات معظم أعضاء **الاخوان المسلمين** . وفى الستينيات أنضم إلى التحالف معظم من أممت شركاتهم أو أملاكهم من **«البرجوازية الكبيرة»** وكذلك بعض **المثقفين** من ذوى النزعات الليبرالية الديمقراطية .

ولكن التحالف الاجتماعى المضاد ظل إلى عام ١٩٦٧ صغيراً فى حجمه العددى ، ومحدوداً فى قدراته السياسية الحركية ، ومعزولاً جماهيرياً ، وظل أفراد هذا التحالف المضاد إما قابعين فى الداخل ، أو منتشرين فى الخارج (يمارسون بعض الأنشطة التجارية) .

كانت هزيمة نظام عبد الناصر فى حرب ١٩٦٧ هزيمة مروعة ، وتزامنت الهزيمة مع تعثر مسيرة النظام فى جهوده التنموية وتجميد الخطة الخمسية الثانية، والاستنزاف المالى والبشرى لحرب اليمن . كما كشفت الهزيمة عن العديد من الأخطاء والتجاوزات فى السنوات السابقة . لذلك بدأ النظام كله يهتز . وبدأت بعض عناصر التحالف الاجتماعى للنظام تنفض عنه وتلتحق تدريجياً بالتحالف المضاد ـ وخاصة من بعض المثقفين وقيادات القطاع العام . ورغم اهتزاز النظام إلا انه لم يسقط أو يقع أرضاً

بسبب شخصية عبد الناصر العملاقة من ناحية ، وبسبب استمرار التفاف الفلاحين والعمال والطبقة الوسطى الصغيرة من حوله ، وبسبب التحدى الجديد الذى فرضه احتلال اسرائيل لجزء من التراب المصرى .

● **التحالف الاجتماعى لنظام السادات :**

البذور الجنينية لتوجهات النظام الساداتى فى المسألة الاجتماعية بدأت كلها فى السنوات الأخيرة من حكم عبد الناصر . فهزيمة هذا الأخير قد أعطت فرصة للتحالف المضاد لكى تخرج من منطقة الظل التى قبع فيها لسنوات طويلة . وبانضمام عناصر جديدة إلى التحالف المضاد . بوازع الوطنية فى المقام الأول ، فإن نقد النظام الناصرى أصبح يقوم فى جزء كبير منه على مبررات وطنية مشروعة . وقد اعترف النظام بمشروعية هذا النقد ، وبدأ منذ عام ١٩٦٨ يعدل فى كثير من سياساته الداخلية كضمان لوحدة الجبهة الوطنية . ولكن هذا التعديل لم يتطرق إلى جوهر المنطلقات الأساسية للنظام فى المسألة الاجتماعية .

حتى رحيل عبد الناصر المفاجئ عام ١٩٧٠ ، وتولى الرئيس السادات لدفة الحكم لم يؤد تلقائياً إلى تغيير جوهر تلك المنطلقات . كل ما هنالك أن النقد للحقبة الناصرية أخذ لهجة **أكثر ارتفاعاً وخاصة بعد ١٩٧٣ . التغيير بدأ فى أعقاب حرب أكتوبر** . وربما كان صدور **القانون ٤٣** فى أوائل عام ١٩٧٤ هو النقطة الرمزية لهذا التحول فى منطلقات النظام الساداتى حيال المسألة الاجتماعية . مع ذلك الوقت كان الرئيس السادات قد كرس شرعيته المستقلة من خلال نصر أكتوبر ، وكان قد تخلص من بقايا الرؤوس الكبيرة التى ورثها من الحقبة الناصرية ، كما أن المتغيرات الاقليمية ، وفى مقدمتها الطفرة المالية النفطية ، والمتغيرات الدولية وفى مقدمتها التقارب مع الغرب ، وخاصة الولايات المتحدة ، كانت كلها عوامل مساعدة وحاسمة فى

الاسراع بهذا التحول فى توجهات النظام حيال المسألة الاجتماعية .

عناصر التحالف الاجتماعى الذى التف حول الرئيس السادات فى البداية كانت عديدة ولكل منها أسبابه الفئوية الخاصة فى الانضمام إلى التحالف . أحد أطراف التحالف كان يتكون ممن أضر بهم نظام عبد الناصر اقتصادياً واجتماعياً ــ أى ممن خضعوا لقوانين الاصلاح الزراعى واجراءات التأميم والحراسة . طرف ثان فى التحالف كان يتكون ممن أضر بهم عبد الناصر سياسياً ، وفى مقدمتهم الاخوان المسلمين والجماعات الدينية الجديدة ورجال أحزاب ما قبل الثورة . طرف ثالث كان يتكون من المصريين الذين كونوا بجهودهم الذاتية ثروات ومدخرات متوسطة أو كبيرة فى الخارج ويودون استثمارها فى مصر ، ولكن فى ظل اطار سياسى اقتصادى جديد يضمن لهم أموالهم . طرف رابع فى التحالف الاجتماعى للرئيس السادات كان يتكون من بعض قيادات القطاع العام الذين وصلوا إلى أعلى مراتب هذا القطاع ، وهم مازالوا فى أربعينيات أو خمسينيات العمر ، ويريدون فرصا أخرى أكثر عطاء خارج القطاع العام . طرف خامس فى التحالف كان يتكون من مثقفى الطبقات الوسطى والعليا الليبراليين الذين أشتد توقعهم لانفتاح ديموقراطى يصاحب الانفتاح الاقتصادى . حتى العمال والفلاحون وأبناء الطبقة الوسطى الصغيرة ، وهم العمود الفقرى للتحالف الاجتماعى الناصرى ، لم يعترضوا فى البداية على سياسة الانفتاح ، على أمل أن تجلب لهم أيضاً بعض المكاسب .

إذن بدأ العقد الاجتماعى لنظام الرئيس السادات فى أوائل ١٩٧٤ بتحالف اجتماعى قوى يتكون فى معظمه من شرائح النصف الأعلى من المجتمع ، مع صمت أو حياء أو ترحيب سلبى من شرائح النصف الأدنى من المجتمع . ومع مرور السنوات الثلاث الأولى ، بدأت شرائح النصف الأدنى تخرج من صمتها أو حيائها وتعبر عن هواجسها فى أن العقد

الاجتماعى الجديد يلحق بها الأضرار ، بينما يفيد الشرائح العليا . وكانت **أحداث يناير ١٩٧٧** هى التعبير الرمزى عن هذه الهواجس . كما بدأت بعض أطراف التحالف الاجتماعى للنظام تنفض عنه تدريجياً ، وفى مقدمتها الجماعات الدينية (التى دخلت أولها فى مواجهة مع النظام فى ابريل ١٩٧٤ ، ثم فى يوليو ١٩٧٧ ، ثم كان خروج ما تبقى منها فى التحالف مع نهاية ١٩٧٧ بعد زيارة الرئيس للقدس) . وتلا ذلك خروج السياسيين القدامى والعناصر الليبرالية من التحالف الساداتى بسبب خيبة أملها فى بطء التحول الديمقراطى أو فى التراجع عن بعض مظاهره. مع أوائل الثمانينات كان التحالف الاجتماعى للنظام قد تقلص بصورة محسوسة ولم يتبق فيه إلا الشرائح التى استفادت من سياسة الانفتاح ، أو التى استغلت هذه السياسة استغلالاً طفيلياً مشروعاً أو غير مشروع ، أو بعض العناصر الوطنية التى لم تفقد ايمانها بجدوى توجهات النظام فى المدى الطويل .

● **لغة الخطاب الاجتماعى :**

الذى يقوم بتحليل مضمون لغة الخطاب الاجتماعى فى الحقبتين الناصرية والساداتية يلاحظ على الفور الفروق الهائلة فى توجهاتهما وفى تحالفاتهما . لغة الخطاب الناصرى كانت ـ وخاصة من بداية الستينيات ـ تركز على «محاربة الاستغلال» «وتذويب الفوارق الطبقية» ، «والكفاية فى الانتاج والعدالة فى التوزيع» ، «والتنمية المستقلة» كدعامة للاستقلال السياسى الحقيقى ، وعلى ما أسمته «بالديموقراطية الاجتماعية» . ولم تخف لغة الخطاب الاجتماعى الناصرى المتناقضات الطبقية ، بل على العكس أبرزت وشددت على الصراع الطبقى كحقيقة اجتماعية ، وإن كانت قد حرصت على أن تدير هذا الصراع بطرق سلمية غير دموية . وقد أدخرت لغة الخطاب الاجتماعى الناصرى كل هذه الشعارات والمسميات تحت اسم «**الاشتراكية العربية**» حينا ، وتحت اسم «**التطبيق العربى للاشتراكية**» حينا آخر .

أما لغة الخطاب الاجتماعى فى الحقبة الساداتية فقد سقطت منه معظم تلك الشعارات والمسميات ، وكان الرئيس الراحل فى أواخر سنواته يضيق ذرعاً بها ، ويسخر منها . وكان يهاجم من استمر فى استخدامها على أساس أنهم يريدون «اشتراكية الفقر والحراسات والمعتقلات» «ويتاجرون بمعاناة الجماهير» . واستحدثت الحقبة الساداتية لغتها المفضلة التى تتواءم مع توجهاتها فى المسألة الاجتماعية ، والتى تتفق مع تحالفها الاجتماعى . أهم مفردات لغة الخطاب الاجتماعى فى هذه الحقبة هى «السلام الاجتماعي» «والعائلة المصرية الواحدة الكبيرة» ، «والرخاء» و«والغنى المشروع» ، و«العلم والايمان» ، «واللحاق بتكنولوجيا العصر» ، «واللحاق بالعالم المتقدم وبالقرن العشرين» كما عبر الرئيس السادات عن حرصه أن يمتلك كل مصرى «فيلا وسيارة» أو قطعة أرض على تراب مصر .

● الحصــــاد :

لا يمكن هنا أن نعطى تقييماً عادلاً للحصاد النهائى لتوجهات وممارسات الحقبتين حيال المسألة الاجتماعية . فالحوار والأرقام والدعاوى التى يسوقها أنصار كل حقبة يشوبها الكثير من الخلط أحياناً ، ومن المغالطة أحياناً أخرى ، كما أن تداخل العوامل الخارجية ، الاقليمية منها والدولية ، مع الأداء الاقتصادى والاجتماعى لكل حقبة يجعل من العسير عزل وتقييم كل منهما بشكل موضوعى . ولكن هذا لا يمنع من الاقرار بأن الحقبة الناصرية قد أفادت بشكل رئيسى الشرائح الدنيا والوسطى فى المجتمع ، بينما أفادت الحقبة الساداتية بشكل رئيسى الشرائح العليا من الطبقة الوسطى والطبقة العليا فى المجتمع . كما أن الحقبة الأخيرة قد أشاعت ـ ربما من حيث لا تقصد ـ قيم النهم الاستهلاكى ، والتكالب على الاثراء المادى بشكل لم تشهد له مصر مثيلاً فى تاريخها الحديث . وقد تولد عن هذه القيم أنماط من السلوك والممارسات الممعنة فى استغلالها وفسادها .

التوجّهات التنموية بين عبد الناصر والسادات (*)

منذ دخلت مصر عصر النهضة الحديثة ـ التى نرمز لها عادة بالحملة الفرنسية فى أوائل القرن التاسع عشر ـ جربت مصر خمس محاولات تنموية كبيرة هى على التوالى :

* تجربة محمد على (١٨٠٥ ـ ١٨٤٩) والتى يمكن أن نسميها النمو الاقتصادى من خلال رأسمالية الدولة والاستبداد الشرقى .
* تجربة الخديوى اسماعيل (١٨٦٣ ـ ١٨٧٩) ويمكن أن نصفها بالنمو الاقتصادى من خلال الاعتماد على الخارج والبذخ الشرقى .
* تجربة طلعت حرب وبنك مصر (١٩٢٠ ــ ١٩٤٠) ويمكن أن نصفها بالنمو الاقتصادى من خلال الرأسمالية الوطنية فى ظل الليبرالية السياسية .
* تجربة عبد الناصر (١٩٥٢ ــ ١٩٧٠) ويمكن أن نطلق عليها وصف التنمية من خلال اشتراكية الدولة وهيمنة القيادة الكارزمية .
* تجربة السادات (١٩٧٠ ــ ١٩٨١) ويمكن وصفها بالنمو الاقتصادى من خلال الانفتاح على الغرب والتأرجح بين الديموقراطية والاستبداد .

(*) الاهرام الاقتصادى ، ١٣/ ١٢/ ١٩٨٢

ونتعرض فى هذا المقال فقط للتجربتين الأخيرتين لقرب عهدنا بهما، ولأننا مازلنـا نعيش ميراثهما ، إيجاباً وسلباً . وأهم من ذلك فاننا فى فترة مـراجعة عامة للمفاهيم والممارسات المتصـارعة خلال العقـود الثلاثـة الماضية . ونحـن جميعاً فى حـاجة إلى استخـلاص دروس النجاح والفشل لكى تكون انطلاقـاتنا فى الثمانينيات ، وما بعدها ، من أرضية معرفية صلبة .

* التوجه الناصرى فى التنمية

ارتبط التوجه النـاصرى فى التنمية منذ البدايـة بهدف تكريس الاستقلال الـوطنى وتقليص تبعيـة مصر لقـوى الهيمنـة الغـربيـة فى النظـام الـرأسمالى الدولى. وفى تصـوراته ، عبر عبـد الناصر بشكل مبـاشر وغير مباشر ، عن ضرورة محاربـة الاستغـلال داخليـاً وخـارجيـاً ، حتى تنطلق قـوى الانتاج الوطنيـة وتحقق مستوى معيشياً لائقـاً للمواطنين من نـاحية وتصون كـرامة واستقلال الـوطن من نـاحية اخـرى . ان مبدأ مقـاومة الاستغـلال داخلياً وخارجياً هو الخيط الرئيسى الـذى يفسر كل اجراءات ومعارك عبد الناصر المحلية والاقليمية والدولية فى مضمار التنمية ، كما فى غيرها من المجالات .

أدرك عبـد النـاصر من البـداية أن مسألـة الأرض والفـلاح هى إحـدى المسائل المركزية فى مصر على مر العصـور . لذلك صدرت قوانين الاصلاح الـزراعى ، التى حـددت الملكيـة الـزراعيـة ونظمت العـلاقـة بين المالك والمستأجر . وكـان الانحياز فيها واضحاً لصـالح الطبقات الدنيـا فى الريف لتقليص الاستغـلال . كشرط لاطـلاق قوى الانتـاج فى الـريف . الجانب الثانى كان توفير الشروط الهيكلية لزيادة الانتاج . فعملت الثورة على تحسين وسائل الـرى والصرف واستصلاح الاراضـى وتوسيع الـرقعة الـزراعية . وكان بنـاء السد العـالى أحد المشروعـات العملاقـة فى تجسيم محاولات عبد

الناصر الجادة فى تنمية مصر اقتصادياً . فزادت المساحة المنزرعة أثناء ولايته بحوالى ٨ فى المائة ، وزادت المساحة المحصولية حوالى ١٥ فى المائة . وفى الفترة من ١٩٥٢ إلى ١٩٦٥ نجحت مصر فى زيادة إنتاج الطعام بنسبة تفوق زيادة السكان لأول مرة منذ الثلاثينيات من القرن الحالى .

وفى الصناعة نجحت مصر الناصرية فى تحطيم اسطورة قدرها الزراعى واستطاعت فى السنوات العشر الأولى من الثورة مضاعفة الانتاج الصناعى مرتين . فقد ارتفعت الارقام القياسية للانتاج فى المصانع التى توظف عشرة عمال فأكثر من ١٠٠ عام ١٩٥٢ إلى ٣٨٣ فى سنة ١٩٦٠ . وزاد إنتاج الكهرباء نحو ٨٠٠ فى المائة بين سنتى ١٩٥٢ و١٩٧٠ . وزاد عدد العاملين فى الصناعة من ٣٥٠ ألفا إلى ٢ر١ مليون . وارتفع نصيب الصناعة فى الناتج المحلى الاجمالى من ٩ إلى ٢٢ فى المائة بين أوائل الخمسينيات وأوائل السبعينيات . هذه القفزات الهائلة فى تصنيع مصر ما كان لها أن تتم بهذا الحجم وهذه السرعة لولا تدخل الدولة وخلقها قطاع عام ، أخذ على عاتقه قيادة الاقتصاد القومى .

ومن هنا قولنا أن النمو الاقتصادى فى مصر ــ وخاصة بين ١٩٥٢ و١٩٦٥ ـ كان نموذجاً لاشتراكية الدولة . فهو مشابه لتجربة محمد على فى مركزيته ، ولكنه يختلف عنه فى دوافعه ونتائجه . فبينما كان محمد على محتكراً لكل أوجه النشاط الاقتصادى الرئيسية ، ومديراً لها من خلال بيروقراطية مركزية ، إلا أنه لم يوظف فائض القيمة لمصلحة من يعملون بالانتاج ، أو لتحسين فرص حياتهم ، أو لتحقيق أى نوع من المساواة بين فئات الشعب وطبقاته بينما كان العكس صحيحاً فى ظل الناصرية ـ حيث نرى مظاهر الاندفاع نحو تعظيم فرص الحياة ، والمساواة فى فرص الحياة .

فى التعليم كان أبرز منجزات الناصرية هو خلق نظام قومى موحد للتعليم . وبذلك وضعت الثورة حداً للتشتت والفوضى والتناقض فى تنشئة

الأجيال المصرية . فقد كانت هناك عـدة أنظمة متوازية لا ترتبط مع بعضها من ناحية، ولا ترتبط بأهداف قومية أو إنتـاجية من ناحية أخرى . مع بداية الحقبة النـاصرية كان عدد التـلاميذ والطلاب فى مـراحل التعليم المختلفة لا يتجاوز ٢ مليون ، ومـع نهايتها وصل العدد إلى ٦ ملايين ــ أى بزيادة ٣٠٠ فى المائة فى مقـابل زيادة سكـانيـة لا تتجاوز ٧٠ فى المائة خـلال نفس المدة . وأهم من ذلـك أن هـذا النمـو الهائل قـد فتح قنـوات الحراك الاجتماعى والسيولة الطبقية أمام فئات عديدة من المستويات الشعبية الدنيا .

فى الصحة تحسنت فرص المصريين فى الحصول على الغذاء كما وكيفاً ، فى المدة من ما بين ١٩٥٢ و١٩٦٢ فقـد ارتفع متوسط عدد السعـرات الحرارية للفرد المصرى يوميـاً من ٢٣٠٠ إلى ٢٦٠٠ ، وزادت نسبة البروتين من ٣٥ إلى ٥٠ جرامـا . فى هذا الصدد وصلـت تغذية المصرى إلى المستـوى العالمى المقبـول، طبقاً لمعـايير منظمة الصحـة العالميـة ومنظمـة الأغذيـة والزراعـة الدولية . كما تحسنت فرص المصريين فى الحصول على الـرعاية الطبية . فقد تـزايــد عـدد الأطبـاء إلى ثـلاثـة أمثــال (من ٥٠٠٠ طبيب فى ١٩٥٢ إلى ١٨,٠٠٠ فى عام ١٩٧٠ ، أى بنسبة ٣٧٥٪) وأصبح معدل السكان إلى كل طبيب هو ٢٠٠٠ شخص بعـد أن كان ٤٠٠٠ شخص ، وانعكس كل ذلك على معـدل الوفيـات والمتوسط العمـرى للمصريين . فقد انخفض المعـدل الأول مـن ١٨ فى الألــف إلى ١٣ فى الألـف بين سنتــى ١٩٥٢ و١٩٧٠ . وارتفع المتوسط العمرى من ٤٢ سنة إلى ٥٣ سنة .

ان اختيارنـا للزراعة والصناعـة كمؤشرين للنمو الاقتصادى هـو لتبيان إطـلاق قـوى الانتـاج فى القطاع السلعى الأسـاسى. واختيـارنـا للتعليم والصحة كمـؤشرين للخدمات هو لتبيـان أن فائض القيمة الاقتصاديـة كان يوظف فى معظمه لضمان الاحتياجات الأساسية لعموم المواطنين .

ويمكن بالطبـع أن ننحوا فى تقييم التجربـة التنموية فى الحقبة النـاصرية

النحو المفصل عند الاخوة الاقتصاديين فنجملها فى مؤشرين مركبين بشكل كمى ـ وهما نمو الناتج المحلى الاجمالى ونمو الدخل القومى .

فى الفترة من ١٩٥٥ إلى ١٩٦٥ تضاعف الناتج المحلى الاجمالى من بليون جنيه إلى ١,٩ بليون بالأسعار الثابتة . وهى معدل نمو يصل إلى ٦,٥ فى المائة سنوياً . وكان للصناعة فيه كما رأينا ـ نصيب الأسد . وارتفع متوسط الدخل الفردى السنوى خلال نفس المدة بنسبة ٤٣ فى المائة بالأسعار الثابتة .

وهو فى رأى الدكتور على الجريتلى ، رحمه الله «**يعتبر حدثاً جديداً فى التاريخ الاقتصادى الحديث لمصر**» **ففى الأربعين سنة السابقة للثورة لم يرتفع متوسط الدخل الحقيقى للفرد على الاطلاق . بل أغلب الظن إنه إنخفض قليلاً عما كان عليه فى أوائل القرن . هذا بينما لم تزد نسبة ارتفاعه فى الفترة من ١٩٦٧ إلى ١٩٧٧ عن ١ فى المائة سنويا** (على الجريتلى : خمسة وعشرون عاماً ، ودراسة تحليلية للسياسات الاقتصادية فى مصر ١٩٥٢ ـ ١٩٧٧ ، ص ١١٨ ـ ١١٩) .

كان يغلب على التجربة الناصرية فى التنمية عدة سمات بارزة . أهمها مركزية الدولة وقيادة القطاع العام فى كل الأنشطة الرئيسية الانتاجية والخدمية . ثانياً ، أخذت التجربة بأسلوب التخطيط الجزئى فى البداية ثم التخطيط الشامل فى الفترة من ١٩٦٠ إلى ١٩٦٥ . ثالثاً ، هيمنة القيادة الكارزمية (الملهمة) لعبد الناصر على مسيرة هذه الجهود التنموية ، بما انطوت عليه هذه الهيمنة من إيجابيات وسلبيات . لذلك فقد كانت تنمية فوقية تستند إلى شخصية الزعيم أو البطل ، وتمت من خلال جهاز بيروقراطى ، قوامه أبناء الطبقات الوسطى بكل شرائحها العسكرية والمدنية ، ودون مشاركة شعبية حقيقية فى اتخاذ القرارات الكبرى ، سياسية كانت أو إقتصادية . هذا رغم إنتفاع الطبقات الشعبية الدنيا فى الريف والحضر بنصيب وافر من ثمرات التجربة الناصرية فى التنمية لهذا أطلقنا على

هـذه التجربـة عنوان : التنميـة من خلال اشتراكيـة الدولـة وهيمنة القيـادة الكارزمية .

إن قوة الدفع الهائلة فى تجربة عبد الناصر التنموية وصلت إلى أعلى مداها فى منتصف الستينيـات . وبعدهـا أطبقت عليـه التحديـات التى لم يفلح فى مواجهتها بـالاستجابة الخلاقة المطلوبـة . لقد كانت «الفريضـة الغائبة» من المشروع الناصرى بوجـه عام ، وتجربته التنمويـة بوجه خاص ، هـو غياب المشـاركـة الشعبيـة ، رغم ولائه الـذى لا شبهــة فيـه لقطـاعـات الشعب العريضـة ـ وكما كـانت الضربة التى نكسـت بتجـربتى محمد على وإسماعيل مـن الخـارج ، فإن الضربة التى نكسـت بتجربـة عبد الناصر كانت أيضاً من الخـــارج ـ هـزيمة ١٩٦٧ .

● **التوجه الساداتى فى التنمية**

ارتبط التوجه الساداتى فى التنمية بتوجهه العام فى التحالف مع الغرب ، وإنبهاره بالتكنـولوجيا الغربية ، ونمط الانتـاج وأسلوب الادارة وأسلوب الحياة الغـربى . لقد كـان حلمه هو أن يقفـز بمصر فى طفرات متتـالية لكى تلحق بالغرب ، وتصبح جزءاً منه لـو أمكن . لذلك فقد انفتح على الغرب بكل قـوة وبكل سرعـة . وعمل على أن تكـون الـولايات المتحـدة زعيمـة المعسكر الغربى ـ شريكا كاملاً لمصر فى السـلام ، وفى إعادة البناء والتعمير لاقتصادها وبنيتهـا الأساسية . لذلك اعتمد نمـوذج السادات التنموى على النمط الغربى ، والمعونة الغربيـة ، والاستثمارات المشتركة الغربية والنفطية العربيـة . وصدرت القـوانين والتشريعات والقرارات مـن أجل تحقيق هذا التحـول الكيفى خلال الفترة من ١٩٧٤ إلى ١٩٨٠ . وهـى التى يشار إليـه إجمالاً بسياسـة الانفتاح . وشملت مجالات الاستثمار والعملـة والتجـارة والمصارف والاستيراد .

خلال المرحلة الأولى للانفتاح (١٩٧٤ ــ ١٩٧٧) كان معدل النمو الاقتصادى بطيئاً ، ولم تظهر الآثار المرجوة من السياسات الجديدة ولكن السنوات الأربع التالية شهدت معدلات عالية للنمو الاقتصادى وصلت فى المتوسط إلى ٥ , ٨ فى المائة سنوياً بالأسعار الثابتة .

فى الفترة من ١٩٧٥ إلى ١٩٨٠ زاد الناتج الاجمالى المحلى من ٨ , ٤ بليون دولار أمريكى إلى ٦ , ٦ بالأسعار الثابتة (لعام ١٩٧٥) . وبالتالى إرتفع متوسط نصيب الفرد من ١٢٧ إلى ١٦٠ دولاراً بالأسعار الثابتة ، وهى زيادة تصل إلى حوالى ٢٥ فى المائة فى خمس سنوات . فى النصف الثانى من السبعينيات معظم النمو الاقتصادى الذى تحقق فى الحقبة الساداتية كان فى قطاعات البترول (٣٣٪ سنويا) والنقل والمواصلات ، خاصة قناة السويس (٢٥٪ سنويا) . وهى قطاعات غير سلعية . أما أهم القطاعات السلعية وهى الزراعة والصناعة فقد كان معدل نموها دون المعدل العام ٦ , ١ فى المائة للزراعة سنوياً و٧ , ٧ فى المائة للصناعة . كذلك كان معدل النمو فى قطاع الاسكان أقل من المتوسط العام ، حيث لم يتجاوز ٥ , ٥ فى المائة سنويا خلال النصف الثانى من السبعينيات .

وفى دراسة حديثة لمنظمة العمل الدولية (أعدها بنت هانس وسمير رضوان) استخلصت من فحص تركيب الاقتصاد المصرى ومعدلات النمو فيه خلال الفترة من ١٩٧٥ ١٩٨٠ إلى ما يلى :

١ ـ إن عملية التصنيع لم تتقدم عما كانت عليه فى الستينيات . بل إن نصيب الصناعة فى الناتج المحلى الاجمالى قد تناقص خلال السنوات الخمس رغم أن الفترة ككل هى فترة نمو سريع . فقد كان نصيبها فى أوائل السبعينيات ٤ر٢٠٪ وانخفض فى ١٩٧٥ إلى ١٨٪ ثم إلى ١٧٪ عام ١٩٧٩ .

٢ ــ إن نصيب الزراعة فى الناتج الاجمالى قد تناقص بدوره من ٣٢٪ فى

منتصف الستينيات ، إلى ٣١٪ فى منتصف السبعينيات ، إلى ٢٤٪ فى نهاية السبعينات .

٣ - رغم النمو الهائل فى عملية التشييد ككل ، إلا أن نصيب قطاع الاسكان فى الناتج الاجمالى قد تناقص بدوره - من ٧,٥٪ فى منتصف الستينات إلى ٧,٢٪ فى منتصف السبعينيات ، إلى ٤,٢٪ فى أواخر السبعينيات .

إن تناقض نصيب الزراعة والاسكان بوجه خاص فى الناتج المحلى الاجمالى خلال الحقبة الساداتية يعنى **عجز الاقتصاد القومى عن مواكبة وتلبية الاحتياجات الأساسية للشعب المصرى عموماً ، ولطبقاته الدنيا خصوصا .**

وقد اعتمد الاقتصاد المصرى فى تمويل معظم نموه فى الحقبة الساداتية على المساعدات الخارجية العربية والغربية ، والتى بلغ مجموعها فى عقد السبعينيات حوالى عشرة بلايين دولار ، منها حوالى ٧ بلايين من الولايات المتحدة ، مقارنة بحوالى بليون دولار فى الحقبة الناصرية (أتى معظمها من الاتحاد السوفيتى) .

وقد انعكس نمط النمو فى الحقبة الساداتية على نمط توزيع الدخل القومى بين شرائح المجتمع . فطبقاً لأحد تقارير البنك الدولى (جداول عالمية الصادر عام ١٩٨٠) ارتفع نصيب أعلى خمسة فى المائة من السكان فى مصر من ١٧ فى المائة من الدخل القومى فى أواخر الستينيات إلى ٢٢ فى المائة فى أواخر السبعينيات . بينما انخفض نصيب أفقر ٢٠ فى المائة من السكان من ٧ إلى ٥ فى المائة خلال نفس العقد الزمنى . **أى أن توزيع الثروة فى مصر قد زاد اختلالا لصالح «الاقلية الميسورة» على حساب «الأغلبية المعسورة» .**

وقد ضاعف من حدة التفاوت فى توزيع الدخل موجة التضخم التى اجتاحت الاقتصاد المصرى أثناء الحقبة الساداتية . وقد تراوح معدل التضخم ما بين ٢٠ و٣٠ فى المائة سنوياً خلال السبعينيات . وهذا معناه عادة أن اعادة توزيع الدخل تتم لصالح العاملين فى التجارة الداخلية

والخارجية وأصحاب الحرف والمهن الحرة ، وعلى حساب أصحاب الدخول الثابتة من الموظفين وأصحاب المعاشـات . بل إن الشواهد العديدة تشير إلى أن القدر الأعظـم من سوء التـوزيع قد استفـادت منه طبقة غير منتجـة من وجهـة النظر الاجتماعيـة ، وهي الـرأسمالية الطفيليـة ، التي تعمل للكسب السريع من المضاربة والسمسرة والعمولات واستغلال النفوذ . وتتميز هذه الطبقة الطفيليـة بإرتفاع ميلهـا لأنماط الاستهلاك الترفي ، وهو الأمـر الذي يؤدي اقتصـادياً إلى تـزايد الواردات من السلع الكماليـة ، وبالتـالي إلى تفاقم ميزان المدفـوعات . هذا فضـلاً عما يؤدي إليـه اجتماعياً ، حيث تعمل أنماط الاستهلاك الترفي ــ من خلال أثر التقليـد والمحاكاة ــ على خلق فجوة كبيرة بين التطلعات الاستهلاكيـة لأبناء الطبقات الوسطى والدنيـا من ناحية وبين دخولهم المتواضعـة من ناحية أخرى ويؤدي ذلك بـدوره إلى سعي أبناء هذه الطبقات إلى كسب المال بأي وسيلـة ـ وهـو الأمر الذي يـدفع إلى الانحرافـ والفساد ، وإلى السخط الذي يؤدي إلى التطرف .

ويبـدو أن الانفاق الترفي في الحقبـة الساداتيـة لم يقتصر على أفراد الطبقـة الطفيلية الجديدة ومن يقلدهـا من الطبقات الأخرى وإنما إنطبق على الانفاق الحكـومي أيضاً . فـاذا استثنينا نفقـات الـدفاع والتعليم والصحـة والمرافق والخدمات الأخرى ، فإننا نلاحظ أن بـاقي بنود الانفاق الاخرى قد زادت نسبتها في السبعينيـات إلى حوالي ١١ في المائة من مجموع الانفـاق الحكومي ـ بعد أن كـانت نسبتها لا تتجـاوز ٥ في المائة في منتصف الستينيات . ومعظم هذه الزيادة تعزى إلى النمو السرطاني للجهاز الحكومي الذي لا تربطه أدنى صلة بقضية الدفاع أو مسألة التنمية .

وكنتيجـة حتمية لنمط النمـو في الحقبـة الساداتيـة تزايد العجـز العام في ميزانية الدولة من ٩١ مليون جنيه عـام ١٩٦٥/ ١٩٦٦ ، إلى ١١٥٤ مليوناً عـام ١٩٧٥/ ١٩٧٦ ، إلى حـوالي ١٤٥٠ مليـونـا عـام ١٩٧٩/ ١٩٨٠ .

وزادت الديون الخارجية من حوالى ١,٠٠٠ مليون جنيه عام ١٩٧٠ إلى حوالى ١٢,٠٠٠ مليون عام ١٩٨٠ . وأصبح تسديد أقساط هذه الديون وخدمتها يلتهم حوالى ٢٣ فى المائة من قيمة الصادرات المصرية سنويا . وكان الموقف يمكن أن يسوء عن ذلك لولا حصيلة تحويلات المصريين العاملين فى الخارج، والتى وصلت فى أواخر السبعينيات إلى حوالى ٢ بليون دولار سنوياً .

لقد ترتب على زيادة ديون مصر الخارجية والعجز الدائم فى ميزانية الدولة إلى تعاظم الاعتماد على الخارج وخاصة الولايات المتحدة والهيئات المالية الأجنبية . وقد أدى ذلك بدوره إلى زيادة تدخل هذه الجهات فى شئون مصر الاقتصادية وكان أبرز مظاهر هذا التدخل فى أواخر ١٩٧٦ وأوائل ١٩٧٧ ، حينما اشترط كل من البنك الدولى وصندوق النقد الدولى على الحكومة المصرية ضرورة سحب دعمها لبعض السلع الأساسية ، وتعويم الجنيه المصرى ، والسماح لقوانين العرض والطلب بممارسة مفعولها فى تسيير جهاز الأسعار . وحينما أذعنت الحكومة لهذه التوصيات وأعلنت قراراتها الاقتصادية بسحب الدعم فى يناير ١٩٧٧ ، انفجرت المظاهرات الغاضبة فى كل المدن الرئيسية . واشتبك المتظاهرون بقوات الأمن وسقط أكثر من سبعين قتيلاً ، ومئات الجرحى طبقاً للبيانات الرسمية . وكانت تلك الأحداث أبشع ما مر بمصر من مظاهر العنف والعصيان الداخلى منذ حريق القاهرة فى يناير ١٩٥٢ .

لقد اعتمدت تجربة التنمية فى الحقبة الساداتية شأنها شأن تجربة الخديوى إسماعيل ـ على الانفتاح على الغرب ، والاعتماد عليه ، والاستدانة منه ، وعلى الانفاق الاستهلاكى ، والاستهلاك الكمالى . وقد رافق تجربة السادات التنموية انفتاحاً ديموقراطياً محكوماً ، تعرض للمد والجزر فى سنواته الأربع الأخيرة . كما رافقت التجربة نمواً متعسراً لرأسمالية وطنية

منتجة حقاً ، ونمواً سرطانياً سريعاً لرأسمالية طفيلية . لم يتراجع الرئيس السادات فى تجربته عن معظم المكاسب والانجازات التى تحققت فى مضمار التنمية فى الحقبة الناصرية ـ وأهمها القطاع العام . غير أن هذا الأخير تعرض لنوع من الاهمال والمحاصرة المقصودة أو غير المقصودة . وتغيرت إلى حد ما وظيفته الاجتماعية والاقتصادية خلال الحقبة الساداتية فمن ناحية حرم من دوره فى قيادة الاقتصاد الوطنى ، ومن كثير من الامتيازات التى منحت للقطاع الخاص . ومن ناحية أخرى أصبح مشجباً تعلق عليه كل الخطايا ، وأصبح كبش فداء يتلقى كل اللوم وكل شحنات الغضب والاحباط من جانب الفئات الشعبية لدى حدوث اختناقات اقتصادية أو أزمات تموينية .

أما الميسورون والأغنياء فقد وفر لهم قطاعهم الخاص ما يحتاجونه من سلع وخدمات (بما فى ذلك خدمات الصحة والتعليم والترويح) وأصبحت هناك ثنائية صارخة فى الاقتصاد المصرى ـ كل شطر منها يتعامل بأسعار مختلفة .

مع استقطاب ثنائية الاقتصاد ، حدث ما هو أخطر وهو استقطاب ثنائية المجتمع .

عروبة عبد الناصر وعروبة السادات

علاقة مصر بالوطن العربى هى علاق الجزء بالكل . والمصريون هم أحد شعوب الأمة العربية . ولكن علاقة الجزء المصرى بالكل العربى والشعب المصرى بالأمة العربية هى ليست كعلاقة الأجزاء الأخرى أو الشعوب الأخرى بالكل العربى أو بالأمة العربية . إنها علاقة أكثر تعقيدا ، وتنطوى على جدلية فريدة ، وتحتمل بالتالى إمكانيات هائلة من التمدد أو الانكماش ، ومن المثالية أو الانتهازية ومن القيادة أو التبعية . هذه الاحتمالات وإمكانية كل منها فى حالة تجسدها الفعلى على أرض الواقع ، تكون لها مضاعفات وطنية وقومية وعالمية خاصة .

هناك ثلاثة مستويات لعلاقة مصر بالوطن العربى . المستوى الأول هو «الهوية» أو الشعور بالانتماء . والمستوى الثانى هو القومية العربية كحركة سياسية تهدف إلى توحيد أقطار الوطن العربى . والمستوى الثالث هو المصالح المشتركة من استراتيجية إلى اقتصادية إلى ثقافية . وفى كل هذه المستويات الثلاثة يمكن أن تتراوح توجه النظام الحاكم فى مصر بين قطبى المثالية والبرجماطية . قد شهدت فى مصر الحقبتين الناصرية والساداتية حركة سريعة بين القطبين خلال العقود الثلاثة الماضية .

عبد الناصر والعروبة

توجهات عبد الناصر نحو الوطن العربى بدأت ملامحها الأولى منذ السنة الثانية لقيام ثورة يوليو . ففى كتاب فلسفة الثورة الذى صدر أواخر عام ١٩٥٣ تحدث عبد الناصر عن الدوائر الثلاث التى تنتمى إليها مصر ، وبالتالى لا بد أن تتحرك فى إطارها . وكان أولها الدائرة العربية ، ثم الاسلامية ، ثم الافريقية . وتعقب عبد الناصر البذور الجنينية لحسه العربى إلى سنوات تلمذته فى المدرسة الثانوية أيام كان يخرج فى المظاهرات التى تحتج على وعد بلفور فى الثانى من نوفمبر كل عام . ونمت هذه البذور تدريجياً من خلال دراسته العسكرية واشتراكه فى حرب فلسطين الأولى (١٩٤٨) . وبدأت تلتحم فى داخله مسألة الهوية أو الانتماء بالمسألة الاستراتيجية أى قضية الدفاع عن مصر . وتعمق هذا الالتحام وتضاعف نموه بقراءة التاريخ والجغرافيا والتراث .

مع منتصف الخمسينيات ، أصبحت العروبة عند عبد الناصر جزءا لا يتجزأ من مشروعه العام فى تكريس الاستقلال الوطنى ، والتنمية الشاملة والعدالة الاجتماعية وعدم الانحياز . لقد أدرك عبد الناصر أن نجاح ثورته فى هذه المجالات يتأثر سلباً وإيجاباً بحركة الوطن العربى ككل . وبالتالى فهناك وحدة مصير بين مصر والأقطار العربية . وما دامت هناك وحدة مصير فلا بد أن تتواءم الحركة السياسية والاجتماعية والدولية لكل أقطار العروبة . ومن هنا كان حرصه المبدئى والاستراتيجى والتكتيكى على :

ــ دعم حركات التحرير العربية التى كانت لا تزال تكافح ضد الاستعمار .

ـ محاربة الأحلاف الأجنبية فى المنطقة .

ــ تحرير الثروات العربية وخاصة النفط . من قبضة الاحتكارات الأجنبية .

ـ دعم الثورات والانتفاضات الشعبية الهادفة إلى التخلص من الظلم الاجتماعى والاستبداد السياسى .

ـ التصدى لاسرائيل باعتبارها جزءا من الاستعمار العالمى بشكله القديم والجديد .

ـ الوحدة العربية .

وكانت حرب السويس تجسيدا حياً لكل جوانب المشروع الناصرى ـ بما فى ذلك جانبه العربى القومى . فتأميم قناة السويس عام ١٩٥٦ كان ينطوى على تأكيد الاستقلال الوطنى من ناحية ، وعلى كسر الاحتكارات الأجنبية من ناحية ثانية ، وعلى استخدام دخلها لبناء السد العالى وتمويل برامجه التنموية من ناحية ثالثة . وكان ما كان من تطورات أعقبت قرار التأميم ، وأهمها العدوان الثلاثى الذى شنته انجلترا وفرنسا وإسرائيل على مصر . وكان هذا العدوان تأكيدا جديداً لعبد الناصر على تداخل عناصر مشروعه الأكبر ، ومنها وحدة المصير العربى . فقد كشف العدوان بشكل درامى عن أن فرنسا اشتركت فيه ، ليس فقط بسبب تأميم قناة السويس ، ولكن أيضاً كانتقام من مصر الناصرية رداً على دعمها لثورة الجزائر . وإن بريطانيا اشتركت فى العدوان ليس فقط بسبب التأميم ، ولكن أيضاً كانتقام من مصر الناصرية بسبب دعمها لحركات التحرير العربية فى جنوب الجزيرة العربية والخليج ، وبسبب مقاومتها لحلف بغداد (الذى كانت انجلترا وتركيا والعراق وإيران وباكستان قد أنشأته بمباركة أمريكية) . وأكد العدوان دور اسرائيل الامبريالى الصغير ، وكمخلب قط للامبريالية العالمية الأكبر .

غير أن الذى يهمنا فى هذا كله لموضوع المقال هو أن مصر الناصرية قد فوجئت حقا ، ليس فقط بمجرد التعاطف الشعبى العربى معها فى معركة السويس ، ولكن بمد القومية العربية الهادر من المحيط إلى الخليج . لقد كانت ملحمة السويس بحق هى نقطة الانطلاق الاستراتيجى الهجومى فى

مسيرة عبد الناصر القومية . لقد حسم عبد الناصر قبل السويس مسألة الهوية حيث نص دستور ١٩٥٦ لأول مرة صراحة على أن مصر جزء من الوطن العربى وعلى أن مركز قيادة حركة القومية العربية ، وحركة الوحدة العربية . إلى ذلك الوقت كان الفكر القومى هو فقط شغل عدة آلاف من المثقفين العرب فى المشرق . وكان العمل الوحدوى إلى ذلك الوقت هو شغل عدة أحزاب صغيرة فى مقدمتها حزب البعث وحركة القوميين العرب (بزعامة جورج حبش) . وبقيادة عبد الناصر للحركة القومية العربية ، تحول الفكر القومى والعمل الوحدوى إلى تيار شعبى هائل من المحيط إلى الخليج . وظل هذا التيار كاسحاً إلى منتصف الستينيات . ودخل عبد الناصر باسمه وتحت رايته العديد من المعارك ، انتصر فى بعضها ، وانتكس فى بعضها ، وانهزم فى بعضها . ولكن الجماهير العربية ظلت على تأييدها له وإلتفافها حوله حتى فى أقسى لحظات الهزيمة (١٩٦٧) ـ وحتى رحيله المفاجئ من عالمنا عام ١٩٧٠ .

يقين عبد الناصر بهوية مصر العربية كان يقيناً عميقاً لم يتأثر بهول المعارك التى خاضها ، ولم يهتز من مرارة الهزائم التى ذاقها . كذلك لم يتأثر إيمانه بوحدة المصير العربى حاضراً ومستقبلاً ، وإن كان قد أصبح أقل إندفاعاً فى مشاريعه الوحدوية بعد نكسة الانفصال وخروج سوريا من الجمهورية العربية المتحدة عام ١٩٦١ .

مثالية عبد الناصر القومية كانت دافعة إلى وضع ثقل مصر العسكرى فى خدمة الثورة اليمنية (١٩٦٢) . وكان ما كان من التورط فى حرب استنزافية داخلية طويلة فى جبال اليمن ووديانها . وكان ذلك خطأ فادحاً دفعنا له ثمناً باهظاً بعد ذلك بعدة سنوات . لم تكن مثالية عبد الناصر هى الخطأ . . ولم يكن مبدأ دعم ثورة اليمن هو الخطأ . . ولكن الخطأ كان فى شكل هذا الدعم وفى آلياته .

مثالية عبد الناصر القومية كانت الدافع وراء سرعته فى النهوض إلى دعم سوريا حينما شاعت أنباء بقرب هجوم اسرائيلى عليها فى مايو ١٩٦٧ . فدفع بقواتـه إلى سيناء . وأغلـق مضايق تيران فى وجـه الملاحة الاسرائيليـة تحسباً لمعركة مع إسرائيل يخفف بها الضغط العسكرى على سـوريا وكان ما كان من هجوم إسرائيلى كاسح أوقع بجيوش مصر وسوريا والأردن هزيمة نكراء فى يونيو ١٩٦٧ . ومرة أخرى لم تكن مثالية عبد الناصر هى الخطأ . . ولم يكن مبدأ دعم سوريا معنوياً وعسكرياً هو الخطأ . ولكن الخطأ كان فى حسابات القوة للـذات وللخصم ، وفى الإعداد الحقيقى لمعـركة مرتقبـة ، وفى إختيار القيادة العسكـرية الصـالحة لادارة مثل هذه المعـركة خاصـة وأن ثلث الجيش المصرى كان لا يزال على أرض اليمن .

هذان النموذجان إلى جانب غيرهما يوضحان كيف يمكن أن تكون قراءة الزعيم المصرى لـواقع المنطقة صحيحاً ، وكيف يمكن أن يكون يقينـه بهوية مصر العربيـة صحيحاً ، وكيف يمكن أن تكون تـوجهاته صـادقة . . ومع ذلك كيف يمكن أن يؤدى الخطأ فى تحديد الألويات ، وفى حسابات موازين القـوى ، وفى توقيت المعـارك إلى أفدح النتـائج . لقد أدت حـرب اليمن إلى تقليص الخطـة الخمسية الثـانية ، وأدت حـرب ١٩٦٧ إلى تجميدهـا تماماً . وانعكس ذلك على مسيرة التنميـة الـداخليـة ، بل حتى على مسيرة الحركـة القوميـة العربيـة . وكما أثبتت ملحمة السـويس عام ١٩٥٦ مـدى الارتباط المصيرى بين معارك مصر الـوطنية ومعارك العرب القـومية بشكل إيجابى ، فقد أثبتت هزيمة ١٩٦٧ نفس قوة الارتباط ولكن بشكل سلبى .

التوجه الساداتى نحو العرب

كان الرئيس السـادات ينظر لمسألة العروبة نظرة بـرجماتية فى الأساس . فمن بين الأبعاد الثلاثة للمسألة (وهـى الهوية والقومية والمصالح) لم يهتم إلا

بالمصالح. وفى هذه كان تحديد المصالح من منطلق مصرى بحت كما تصوره هو .

لم يكن السادات يحارب من أجل هوية مصر العربية . ولا من أجل القومية العربية ، إلا بقدر ما كان ذلك يخدم مصلحة مصرية بحته . وفى اللحظة التى يلوح له فيها ان هوية مصر العربية أو القومية لا تخدم هذه المصلحة فقد كان يبدو مستعداً ليس فقط لادارة ظهره لهما بل أيضاً للاستخفاف بهما ، وربما محاربتهما .

هذا يفسر المسيرة المتعرجة لسياسة الرئيس السادات نحو العرب والعروبة. ففى الفترة الأولى من حكمه (١٩٧٠ ـ ١٩٧٣) ، كان الرجل حريصاً أشد الحرص على التضامن العربى ، ومهادنة كل الأنظمة العربية على مختلف مشاريعها الايديولوجية ولم يسمح بأى حملات دعائية ضد أى منهم . لقد كانت تلك هى فترة الإعداد لمعركة أكتوبر . ومن أجل ذلك تعاون مع سوريا البعثية ، ومع السعودية الملكية ، ومع ليبيا القذافية ، ومع السودان النميرية، ومع الأردن الهاشمية. تعاون مع هؤلاء جميعاً من منطلق برجماطى بحت تحكمه المصلحة الوطنية المصرية ، فى دخول معركة محدودة مع اسرائيل بأمل تحرير سيناء . تعاون مع هؤلاء جميعاً على ما بين أنظمتهم من خلاف أو تناقض .

ولأن الرئيس السادات لم يكن يتعاون مع هذه الأنظمة وغيرها من منطلق الهوية أو القومية فان علاقته بكل منها بعد حرب أكتوبر قد خضعت لحسابات المصالح الجديدة لمصر ، كما تصورها هو . وقد تصور مصالح مصر بعد أكتوبر فى :

١ ـ الصداقة مع الغرب .

٢ ـ جذب الاستثمارات المالية من الدول العربية النفطية .

٣ ـ مهادنة إسرائيل . وفى المدة من عام ١٩٧٤ إلى ١٩٧٧ نجده بالتالى

يتبرم بكل من سوريا وليبيا التى كانت تربطه بهما اتفاقية اتحاد ، ويقترب أكثر إلى السعودية ودول الخليج . وكان يعتقد أن علاقته بالسعودية خصوصاً وسيلة، ليس فقط فى اجتذاب الاستثمارات منها لاعادة تعمير مصر ، وإنما أيضاً لخدمة وتدعيم سعيه الدائب إلى مصادقة الولايات المتحدة. ومع نهاية تلك الفترة (أوائل ١٩٧٧) كان الرئيس قد خلص إلى أن علاقته بالولايات المتحدة أصبحت قوية ومباشرة ولا تحتاج إلى الوسيط السعودى . كما خلص إلى أن حجم المساعدات القادمة من السعودية ودول الخليج الأخرى أقل بكثير مما كان يرجوه ويتمناه . حتى بعد أحداث يناير ١٩٧٧ التى هزت النظام الساداتى ، لم يظهر عرب النفط بمستوى الكرامة والشهامة التى توقعها منهم وهو فى أحد لحظات محنته . ومن هنا بدأ يتبرم أيضاً بالأنظمة النفطية ، ويبدأ يظهر هو استعداده لفك الارتباط معهم . فهم شأنهم شأن الأنظمة التقدمية فى فترة سابقة بالنسبة له ، لا تربطه بهم فى الأساس رابطة الهوية أو السعى القومى المشترك نحو الوحدة . الذى يربطه بهم هو المصالح فقط . وما داموا قد تلكأوا فى مساعدته مالياً واقتصادياً فلا فائدة منهم .

ومن هنا يدخل نظام الرئيس السادات مرحلته الثالثة والأخيرة فى موقفه من العرب والعروبة وهى المرحلة التى بدأت فى نوفمبر ١٩٧٧ بزيارته لإسرائيل . وفيها يقامر بقطيعة شبه كاملة مع كل العرب تقدميين ومحافظين، جمهوريين وملكيين . وقد كانت قمة هذه المرحلة (١٩٧٧ ـ ١٩٨١) هى توقيع اتفاقية السلام مع إسرائيل (١٩٧٩) . ولم يبال الرئيس السادات كثيراً بقرارات قمة بغداد ، وبالمقاطعة العربية وبتعليق عضوية مصر فى جامعة الدول العربية . فقد كان على يقين أن العرب هم الذين سيحتاجون إليه . وكان على يقين أن الولايات المتحدة ستعوضه مالياً ودبلوماسياً عن قطيعة العرب له .

فى مرحلة القطيعة (١٩٧٧ ـ ١٩٨١) كان الوطن العربى يزداد ضعفاً

وتفككاً . وكان استتساد إسرائيل وتحرشهـا بجيرانها العرب الآخرين يزداد يومـاً بعد يـوم . كانت الأنظمـة العربية تعـزوا هذه الحالـة المتردية لسيـاسة «صلحه المنفـرد» مع إسرائيل ، بينما كان الـرئيس السادات يعزوهـا إلى غباء الأنظمة وجهلها وعـدم انصاتها إليه ، وخروجهـا عن المسيرة التى اختارها هو للتعامل مع إسرائيل والغرب والعالم .

كان الرئيس السادات يرى الوطن العربى حول مصر ينفجر من الداخل (حادث مكة فى السعودية وتصـادم الإخوان المسلمين مع النظام السورى ، حـادث جفصة فى تـونس ، أحـداث تيـزى أوزو فى الجزائر ، واشتباكـات الحدود العربيـة ، والصراعات الـداخلية فى العـراق ثم حربها مـع إيران) . وكان يعتبر ذلك بمثابة البرهان على أن الأنظمة العربية الأخرى فى خطر بينما نظامه هو فى أمان . وكان يتردد أن مصر الساداتية هى جزيرة الأمن والأمان فى المنطقة . وربما حتى لحظـة وفاته المأسـاوية كان يعتقـد أنه فى جزيـرة آمنة مطمئنة .

لغة الخطاب القومى

كانت لغة الخطاب القـومى عند عبد الناصر تجسـد قناعاته المبـدئية حول عروبة مصر ، وقدرها التاريخى فى أن تقود الأمـة العربية فى معارك التحرير والبناء والوحـدة . وإبتداء من معركة السويس عـام ١٩٥٦ وإلى يوم رحيله فى ١٩٧٠ ، كان الرجل يوجه خطابـاته إلى شعب مصر والأمة العربية كانت الأولويـة فى تخاطبه مع الشعـوب العربية ، كـان يتواصل معهـا مباشرة على الهواء أو فى الميادين العـامة . وكانت الجماهير العـربية من المحيط إلى الخليج تصغى إليه ، وتستجيب لنداءاته وتهتف بـاسمه وبالشعارات التى رفعها . وكانت إذاعة صـوت العرب هى إحدى آلياته الفعالـة فى التخاطب مع هذه الجماهير . وكانت هذه السطوة العاطفية على الجماهير هى وسيلته فى الضغط

على الأنظمة الحاكمة . فخطابه مع الأنظمة الحاكمة كان يأخذ المرتبة الثانية فى أولوياته . لذلك بقدر ما كانت علاقته مباشرة وايجابية ووجدانية مع الجماهير العربية فى كل مكان ، بقدر ما كانت علاقاته بالأنظمة الحاكمة مليئة بالشكوك والريبة من الجانبين . ولم يكن يلجأ إلى التعامل مع الأنظمة إلا مضطراً . من ذلك دعوته لها للاجتماع فى مؤتمر القمة الأول بالاسكندرية (عام ١٩٦٤) لمواجهة مشاريع اسرائيل لتحويل مياه نهر الأردن . وهو التقليد الذى استمر فى حياته وبعد مماته ، وإلى يومنا هذا . ولكن القاعدة فى الحقبة الناصرية وإلى هزيمة ١٩٦٧ ، كانت معاداة الأنظمة العربية الحاكمة ، واستعداء شعوبها عليها . وكانت فترات مهادنة هذه الأنظمة قصيرة وتمثل الاستثناء من القاعدة العامة . كما كان يلجأ النظام الناصرى فى أحيان كثيرة إلى إستخدام أجهزة المخابرات المصرية لخلق المتاعب للأنظمة العربية المعادية . وكان تجنيد الأعوان فى كل البلاد العربية أمراً ميسوراً نظراً لايمان الملايين بإخلاص عبد الناصر وبزعامته الكارمزية ولكن عبد الناصر طوال حياته لم يستعد شعباً عربياً على شعب عربى آخر . ولم يثر أى نزعات قطرية شوفينية ، ولم يباه الشعوب العربية الأخرى بما فعله من أجلها ، أو يوحى بأن مصر والمصريين أفضل من غيرهم ، أو أكثر تحضراً أو تمديناً من باقى الأمة العربية . باختصار كانت حملات عدائه واستعدائه موجهة دائماً ضد حكام آخرين ، ولم توجه أبداً ضد الشعوب العربية . وكان عبد الناصر حريصاً على التمييز فى خطابه القومى بين الحكام والشعوب ، لا العربية فقط ولكن غير العربية أيضاً . ففى قمة عدائه لشاه إيران مثلاً لم يهاجم الشعب الايرانى مرة واحدة . وبالعكس كان يعتبر الشعب الايرانى ككل الشعوب المسحوقة ، حليفاً له ضد الاستعمار والطغيان .

لغة الخطاب القومى عند الرئيس السادات فى علاقته بالعرب والعروبة كانت بدورها تجسم مفاهيمه وقناعاته فى هذه المسألة . وكما مرت علاقته

بالعروبة بمراحل ثلاث ، فقد تراوحت لغة الخطاب من مرحلة إلى أخرى . ففى المرحلة الأولى (١٩٧٠ ــ ١٩٧٣) كان التركيز على مفاهيم الأخوة العربية والتضامن العربى والأسرة العربية الواحدة . وكان تعامله أساساً مع الحكام والأنظمة الحاكمة وليس مع شعوب الأمة العربية . وبعكس عبد الناصر نادراً ما نجد السادات يوجه خطاباً مباشراً لجماهير الأمة . وقد اعتبر بعض المراقبين ذلك فى البداية حرصاً منه على ألا يثير شكوك الحكام العرب، الذين كان يضايقهم وصول عبد الناصر إلى رعاياهم مباشرة . ولكن التفسير الأدق لأسلوب السادات فى هذه المسألة هو أن قناعته المبدئية بأمة عربية واحدة وبمصير عربى واحد لم تكن بنفس العمق أو اليقين الذى كان لدى عبدالناصر . أقصى ما كان يؤمن به فى هذه الناحية هو أن الشعوب العربية والاسلامية هى أمم متآخية تربطها وشائج اللغة أو الدين. ولكن هذه الوشائج فى حد ذاتها لا يترتب عليها حقوق أو التزامات أو واجبات . فإذا استطاع نظامه أن يتعامل مع الأنظمة الحاكمة فيها من منطلق المصالح ، ويحصل منها على تأييد مادى أو معنوى هنا وهناك فان ذلك كله يتوقف على المهارات الفردية للحاكم .

أما ايجابيات برجماطية السادات المصرية فقد كان أهمها إنجاز حرب أكتوبر، وتحرير سيناء . أهم سلبياتها هى إنها فى سنواتها الأخيرة (١٩٧٧ ـ ١٩٨١) قد عزلت مصر عن محيطها الحيوى ، وتركت العالم العربى بلا قيادة فزاد انقسامه وتشرذمه . وبانعزال مصر عن العرب زاد ضعفها ، وتكرست تبعيتها ، وزاد ضعف العرب وتكرست تبعيتهم . وكان المستفيد الأكبر من هذه البرجماطية المصرية هو اسرائيل فى المقام الأول . فقد أصبحت هى الدولة الاقليمية العظمى فى المنطقة ، تعيث فساداً ، وتضرب هنا وهناك ، وتتوسع هنا وهناك . وأصبحت تملى ارادتها بالقوة وبالوعيد والتهديد لا على دول المشرق العربى وحدها ، وإنما على مصر أيضاً بل أصبحت تمارى

أن مجالها الحيوى يمتد من باكستان إلى المغرب . . وكان المستفيد فى المقام الثاني هو القوتان الأعظم الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى فبتنازل مصر عن قيادتها القومية لوطنها العربي ، تقدمت كل من الدولتين الأعظم لتملأ هذا الفراغ القيادي بشكل مباشر أو غير مباشر . وأصبحت الأقطار العربية عند كل أزمة تحل بها تولى وجهها شطر واشنطن أو موسكو .

هذا هو الحصاد المختلط لكل من الحقبتين الناصرية والساداتية فى مسألة العرب والعروبة ان دروس النجاح والفشل لابد أن تدفعنا إلى تنقية هذا الحصاد المختلط وتحويله إلى حصاد صاف بقدر الامكان هذا هو تحدى الثمانينيات لكل من مصر وأمتها العربية .

لذلك كله نجد لغة الخطاب الساداتى فى مواجهة الأنظمة العربية تنتقل فى لهجتها من الشكر والامتنان فى المرحلة الأولى (١٩٧٤ ـ ١٩٧٧) إلى الاستنكار والاستهتار فى المرحلة الثالثة (١٩٧٧ ــ ١٩٨١) بل إننا نلاحظ فى المرحلة الأخيرة أن هناك استنفاراً لهوية مصرية خالصة ومتعالية ، وتقترب من العصبية القطرية فى مواجهة العرب الآخرين . وعند تلك النقطة بدأت الحدود حتى بين الحكام وشعوبهم تكاد تختفى . وأصبحت لغة الخطاب الساداتى تمعن فى احتقار العرب الآخرين ، فنحن المصريين فقط أصحاب الحضارة الحقيقية فى المنطقة ومن ورائنا ستة آلاف سنة من المدنية . . بينما هم «العرب» قبائل لكل قبيلة علما ، وانخدعوا بتسمية أنفسهم شعوباً ودولا . باختصار تحولت لغة الخطاب الساداتى فى السنوات الأخيرة إلى التشفى فى العرب والتحقير لهم أنظمة وشعوباً واستعداء المصريين عليهم . وظهرت شعارات من قبيل مصر فوق الجميع ، ومصر أولاً . . ومصر دائماً .

الحصـــــاد

مثالية عبد الناصر القومية وبرجماطية السادات المصرية كانتا تمثلان طرفى

نقيض فى التعامل مع مسألة العرب والعروبة . وقد كان لكل طرف نقيض نتائج إيجابية وعواقب سلبية . إيجابية مثالية عبد الناصر القومية أضفت على مصر والعرب قوة معنوية هائلة فى فترة المد التحررى من ١٩٥٢ إلى ١٩٦٢ . كانت مصر قوية بالعرب من حولها ، وكان العرب أقوياء بمصر فى وسطهم. كانت خطوط المعارك واضحة فى لحظات النصر وفى لحظات الهزيمة . وفى الفترة من ١٩٦٢ إلى ١٩٧٠ ظهرت سلبيات مثالية عبد الناصر القومية . فقد استدرج عبد الناصر ومعه مصر إلى حروب غير محسوبة ، وإلى معارك لم يحسن اختيار زمانها ومكانها وكانت النتيجة استنزافاً للطاقات والدماء وانتكاساً للمشروع الناصرى برمته ــ سواء فى جانبه التنموى الداخلى أو فى سعيه لتكريس الاستقلال الوطنى وعدم الإنحياز ، أو فى مسيرته لتحقيق الوحدة العربية .

القسم الثالث

السادات بعد عشر سنوات ... ما له وما عليه

السادات بعد عشر سنوات ... ما له وما عليه

فى إعادة كتابة التاريخ

لقد حرصنا فى القسم الأول من هذا الكتاب أن نسجل حوارنا مع الرئيس الراحل أنور السادات من واقع مذكرات ، سجلت فى أعقاب مقابلة طويلة تمت معه فى استراحته بالاسكندرية يوم ٣١/٨/ ١٩٨١ ، بحضور حرمه السيدة جيهان السادات . وكان ذلك قبل اغتياله بخمسة أسابيع . لقد كان الحوار ساخناً ، وغاضباً فى عديد من لحظاته . وواضح من وقائع الحوار أن هذا الكاتب كان على خلاف ظاهر مع معظم سياسات وممارسات الرئيس السادات . وكان يمكن نشر مضمون هذا الحوار بعد اغتيال الرجل مباشرة . . ولكنا لم نفعل ذلك فى حينه لسببين :

* أولهما ، اننى لم أكن قد أستأذنت الرئيس الراحل فى نشره . . . كما لم تتح لى الظروف مقابلة السيدة حرمه لاستئذانها فى ذلك .
* ثانيهما ، أن الرئيس الراحل أنور السادات كان قد تعرض بعد إغتياله لحملات شديدة من النقد والهجوم والتجريح ، ليس فقط ممن اختلفوا معه فى حياته ، ولكن أيضاً من كثير ممن أظهروا له كثيراً من الود أو تملقوه وهو فى السلطة . ولم يشأ هذا الكاتب أن يكون جزءاً من هذه الحملات الشرسة .

ولكن بعد عشر سنوات من رحيل أنور السادات عن عالمنا ، رأيت أن

الـوقت أصبح مواتيـاً لنشر معظم وقائع هـذا الحوار . ولم أسقط منه إلا مـا انطـوى على مسائل تمس شخصيـات عـامة عـربيـة ومصرية من الأحيـاء أو الأموات ، ولا يخدم ذكرها أى قضية عامة .

* * *

وفى القسم الثـانى من هذا الكتـاب ، اعـدت تسجيل ما كنت قـد قمت بنشره عن سياسات وممارسات الرئيس أنور السادات ، بعد عام من رحيله . وكان واضحاً مما كتبته فى أواخر عام ١٩٨٢ وأوائل عام ١٩٨٣ ، أننى كنت مـا زلت معارضـاً ونـاقداً لمعظم سيـاسات وممـارسـات الرئيس الـراحل . والحكمة من إعـادة نشر هذه الآراء والاجتهادات هو أن يكـون القارئ على بينة من تطور فكر هذا الكاتب تجاه السياسات العامة لنظام الرئيس السادات فى لحظات زمنية متتابعة .

يقال «إن كل جيل يعيد كتابة التاريخ» . . . وهذا صحيح بالمعنى العام ، وله أسبابه الموضوعية والذاتية .

من بين الأسباب الموضوعية أنه فى لحظة وقوع الأحداث وتسجيلها . . . لا يتم الافصاح عن كل الحقائق المتعلقة «بالحدث» ممن شاركوا فيه أنفسهم . وبمرور الـوقت يكشف هؤلاء أو ذويهم أو الـوثائق العامـة مزيـداً من هذه الحقائق ، مما يستوجب إعادة كتابة التاريخ أو إعادة تفسيره .

ومن الأسباب الذاتيـة لاعادة كتابة التاريخ مع أجيال تـالية . . . هو أنه وقت وقـوع الأحداث ، وخـاصة الكبير منهـا ، يختلف الناس فى مـواقفهم منهـا ، بما فى ذلك حتى أكثر المؤرخين والمراقبين حيـاديـة ومـوضـوعيـة . ويكـون هـذا الاختـلاف فى كثير من الأحيـان مـدعـاة لمشـاعـر وعـواطف ساخنة . . وتلون هذه المشـاعر والعواطف موقف المؤرخ أو المراقب ، حتى وهو يسجلهـا ، أى قبل تفسيره لها . فعملية تسجيل الحدث نفسـه تتعرض بشكل واع أو غير واع لبعض انتقائية فى المفردات . . . فيتم إهمال بعضها أو

السكوت عنه ، بينما يتم إبراز بعضها والحديث عنه . ولكن بعد فترة زمنية ، قد تقصر أو تطول ، تهدأ العواطف وتستقر المشاعر ، ويصبح من الممكن إعادة كتابة التاريخ بشكل أكثر حيادية .

ومن الأسباب التى تتداخل فيها الاعتبارات الموضوعية والذاتية معاً ، وتملى على الأجيال التالية أن تعيد كتابة التاريخ ، هو «المسافة الزمنية» على وقوع الأحداث ، وظهور معظم تداعياتها التى كانت كامنة أو مطمورة ، سلباً أو إيجاباً .

ومع ذلك فلا ينطوى إعادة كتابة التاريخ دائماً على مزيد من الموضوعية أو الانصاف . ففى تاريخنا ، منذ الفراعنة إلى الحقبة المعاصرة ، كانت تتم محاولات لإعادة كتابة التاريخ لخدمة أغراض بعينها . فحتى الفراعنة كانوا يتعمدون طمس تاريخ بعضهم البعض بعد عشرات أو مئات من السنين ، لينكروا على أسلافهم أمجاداً أو انجازات هى من حق هؤلاء الأسلاف ؛ وليدعوا لأنفسهم أمجاداً وإنجازات لا يستحقها هؤلاء الاخلاف . وفى الحقبة المعاصرة من تاريخ مصر الحديث ، شهدنا كيف تمت إعادة كتابة تاريخ اسرة محمد على مرتين ، وتاريخ الثورة العرابية مرتين ، وتاريخ ثورة ١٩١٩ مرتين . ودائماً فى المرة الثانية كانت الكتابة مختلفة أو متناقضة تماماً مع المرة الأولى .

وليس هذا وقف على المصريين والعرب . فمنذ ثلاثة أعوام ، حينما احتفلت فرنسا بمرور مائتى عام على ثورتها الكبرى (١٧٨٩) ظهرت عدة كتب عن هذا الحدث الجلل ، الذى غير فرنسا وأوروبا والعالم . وبمعنى من المعانى انطوت هذه الكتب على إعادة كتابة وتفسير تاريخ الثورة الفرنسية . وكشفت هذه الكتابات عن استمرار استقطاب عميق بين المؤرخين الفرنسيين أنفسهم نحو ثورتهم الكبرى . فكان بعضهم مؤيداً وممجداً لهذه الثورة ، ومبرراً لكل اشتطاطاتها . وكان بعضهم الآخر معارضاً

ودامغا لها ولقياداتها . والجدير بالذكر هنا أن عواطف ومشاعر الكتاب الفرنسيين كانت ما تزال ساخنة تجاه الثورة كما لو كانت قد وقعت منذ يومين أو اسبوعين أو عامين ، وليس بعد مائتين من السنوات .

ولا شك أننا سنشهد ، إن لم نكن قد شهدنا بالفعل ، شيئاً مماثلاً بالنسبة لثورة أخرى كبرى غيرت قلب ووجه بلدها والعالم فى القرن العشرين ، ألا وهى الثورة الروسية البلشفية (١٩١٧) . فتفكيك الاتحاد السوفيتى ، وحل الحزب الشيوعى الذى قام بالثورة ، وتحطيم تماثيل رموزها ، والهجوم عليهم ، والغاء علمها والعودة إلى العلم القيصرى القديم ، وإعادة بناء النظام الاجتماعى ـ الاقتصادى ـ السياسى على أسس مغايرة تماماً . . . هى كلها جزء من إعادة كتابة تاريخ تلك الثورة .

* * *

ولا نريد الاستطراد فى إعطاء الأمثلة على إصرار كل جيل أن يعيد كتابة تاريخ بلده ـ سواء فى مصر أو الوطن العربى أو العالم . فالأمثلة تجل عن الحصر . وإنما نكتفى بهذا القدر توطئة لاعادة تقييم الحقبة الساداتية من تاريخ مصر الحديث .

ولكن قبل المضى فى ذلك ، لا بد من بعض الاستدراكات .

* **الاستدراك الأول** . هو أن ما يفعله هذا الكاتب هنا هو ليس تأريخاً للحقبة الساداتية . فالكاتب ليس مؤرخاً محترفاً ، ولا هاوياً . فليس هذا هو قصد الكاتب . وكل ما يفعله هنا هو إعادة تأمل تلك الحقبة .
* **الاستدراك الثانى** . هو أن هذا الكاتب لا يمثل جيلاً جاء بعد الحقبة الساداتية ؛ ومن ثم يجد من حقه إعادة تأملها كارهاص لاعادة كتابة تاريخها . لقد شهد هذا الكاتب الحقبة برمتها ، وأبدى فيها رأيه مرتين ،

فى حيـاة السادات ، وبعـد رحيلـه بعام واحـد أو يـزيـد ؛ على نحو مـا يكشف القسمان السابقان من هـذا الكتاب نفسه . وفى المرتين السابقتين كانت الآراء والاجتهادات مـازالت متسقة فى نقدها ومعارضتهـا العامة لسياسـات وممارسـات الحقبة السـاداتية . ولكـن ما يفعلـه فى هذه المرة الثالثـة مختلف نوعيـاً . فقد انتهت معارضتـه لبعض توجهـات الرئيس الراحل ، وخفت معارضتـه لبعض سياساته ، واستمـر نقده لكثير من ممارسـاته ، وذلك لأسباب يأتى الحديث عنهـا فى فقرات تاليـة من هذا القسم .

* **الاستدراك الثالث** . هو وقفة تأمل مع الذات ، من حق القارئ أن يطلع على مفرداتها الـذاتية والموضوعيـة . فحينما قامت ثورة يـوليو (١٩٥٢) كـان هذا الكـاتب فى طفـولـة وعيه السيـاسى ، حيث لم يكن قـد تجاوز الرابعة عشر من العمر . وقد ترعرع وعيه مع الثورة ورموزها وشعاراتها وسيـاسـاتها . وبهذا المعنى اعتبر نفســه واعتبره كثيرون من أبنـاء ثـورة يـوليـو . وكـان عبـدالنـاصر زعيم هـذه الثـورة . وحينما بـدأ مصطلح «الناصرية»(الذى لم يحبه عبد الناصر فى حياته) يطلق على الأوفياء للثورة وزعيمها الخالد ، فقد عرف هذا الكاتب بأنه فى عداد «الناصريين» وإن كان هو لم يدع هذا «الشرف» لمن يعتبرونه كذلك ، ولم ينف هذه «التهمة» لمن يعتبرون الناصرية تهمة . الكاتب نفسه كان ومايزال يفضل ، إن كان لابـد من تسميـة ، ان تكـون تسميـة بـالانتماء لفكــر وتـوجهـات ، لا لأشخاص ، مهما كان جلالهم وعظمتهم . وهـو ينتمى لفكر وتوجهات ثورة يـوليو . ولهذا السبب ظـل هذا الكاتب طـوال حكم الرئيـس أنور السادات ، ولعدة سنوات بعد اغتيالـه ، متشككا فى وفاء أنور السادات لفكـر وتـوجهات ثـورة يـوليـو ، ناهيـك عن الوفـاء لشخص زعيمهـا الخالد . وربما كانت هذه الشكوك العميقة هى أحد أسباب الموقف الناقد

والمعارض لسياسات وممارسات الرئيس السادات . ولكن المسافة الزمنية، والأحداث فى مصر والوطن العربى والعالم ، وربما نضج الكاتب أو كهولته الفكرية ، تجعله الآن ينظر لكثير من الأمور بمنظار مختلف بعض الشىء ، عما كان ينظر به للأمور منذ عشرين عاماً ، ومنذ عشر سنوات .

وبهذه الاستدراكات الثلاثة أعرض تقويما عاماً لأهم توجهات وممارسات الحقبة الساداتية .

* * *

توجهات صائبة ... وممارسات خائبة

يمكن القول أن السنوات الثلاث الأولى (أكتوبر ١٩٧٠ ـ أكتوبر ١٩٧٣) من ولاية الرئيس السادات كانت إمتداداً للحقبة الناصرية فى سياساتها ولغة خطابها . فقد حرص أنور السادات على أن يكرس «شرعيته» معتمداً على تراث ثورة يوليو ، وعلى أنه خليفة عبد الناصر ، يسير على نهجه . واقتضى ذلك بالطبع الاشادة الدائمة بالزعيم الخالد ، الذى كان قد أصطفاه بتعينه نائباً له فى رئاسة الجمهورية .

ولكن تكريس الشرعية لم يكن يكفى . كان لابد للرئيس الجديد أنور السادات أن يكرس أيضاً «سلطته» . وانطوى ذلك فيما انطوى عليه على التخلص من أولئك الذين كانوا إما مناوئين فعليين أو محتملين فى هذا السعى لتكريس سلطته . وقد أتاحت له الظروف ذلك بعد حوالى تسعة شهور من تقلده منصب رئاسة الجمهورية ؛ حينما اختلفت معه المجموعة التى كان يقودها السيد / على صبرى . وشملت وزير الحربية (الفريق محمد فوزى) ووزير الداخلية (السيد / شعراوى جمعة) ووزير الإعلام (السيد / محمد

فايـق) ورئيس مجلس الشعب (الدكتـور / لبيب شقير) وأحد وزراء الـدولة ومدير مكتب رئيس الجمهوريـة (السيد / سامى شرف) . وسيظل التاريخ السيـاسى المصرى حائراً حـول السهولـة النسبيـة التى تخلص فيها الـرئيس السـادات من هـؤلاء جميعـاً فى ضربـة واحـدة ، فى يـوم واحـد (١٥ مـايـو ١٩٧١)، رغم سيطرتهم على أهم مؤسسات الـدولة المصرية . ولعل أصح التفسيرات هو أن هذه الشخصيات العامـة التى تدرجت فى مناصب السلطة فى عهد الـرئيس جمال عبدالناصر ، كـان ينقصها الحنكة السياسيـة ، وعدم الوعى بالطبيعـة الهرمية للسلطة فى «مجتمع نهرى» ، مثل المجتمع المصرى ، والـذى يملك فيه من هـو فى قمة الهرم ثمانين فى المائة من أوراق أى منـاورة سيـاسيـة . هذا فضـلاً عن أنهم إستهـانـوا بـالمهـارات السياسيـة للـرئيس أنورالسادات . المهم هذا ليس موضـوعنا الأساسى الآن . ويكفى أن نقول إن السنوات الثلاث الأولى بالنسبة للرئيس السـادات كانت مرحلة تكريس شرعيته وسلطته .

ثم جاءت حـرب أكتوبر المجيدة عام ١٩٧٣ ، والأداء الـرفيع فيها لمصر والعرب ــ عسكرياً وسياسيـاً . وقد استغل الرئيس السادات هـذا الإنجاز الكبير لكى يفصح عن توجهاته الجديدة ـ داخلياً ، وإقليمياً ، ودولياً . ففى أعقاب تلك الحرب ، شعر الرئيس السادات أنه لم يعد فى حاجة إلى تكريس شرعيته على تـراث ثورة يوليـو وخلافته لعبـد الناصر وحدهما . لقـد كان انتصار أكتوبر مصدراً جديداً لا يقل عن المصدرين السابقين فى تكريس هذه الشرعية . وبمـرور السنوات ، حـاول الرئيـس السادات أن يجعلـه المصدر الأسـاسى ، إن لم يكن المصـدر الوحيـد لهذه الشرعيـة . ومن هنا شهـدت الشهور القليلة التاليـة لحرب أكتوبر الإعلان عن أربعة تـوجهات جديدة ، تمثل فى مجملها اختلافاً نوعياً واضحـاً عن توجهات الحقبة الناصرية ، وهى بالترتيب الزمنى :

* الانفتاح الاقتصادى
* الانحياز للغرب
* التحول الديموقراطى
* المصالحة مع إسرائيل

أى أن اثنين من هـذه التـوجهـات الأربعـة كـانـا يخصـان البيت المصرى الـداخلى ، واثنـان يخصـان عـلاقـات مصر الإقليميـة والـدوليـة . ولكن التـوجهات الأربعـة كانت تمثل معـاً وبترابط وثيق «مشروعاً ساداتياً» بديلا «للمشروع الناصري» . وقد تحدثنا تفصيلا عن ذلك فى القسم الثانى من هذا الكتاب فى مجال المقـارنة بين الـزعيمين الراحلين . وظل هـذا الكاتـب لعدة سنوات ، فى حيـاة الرئيـس السادات وبعـد رحيله ، نـاقداً ومعـارضاً لهذه التوجهـات الساداتيـة . ولكن بعد مـرور عشر سنوات على رحيل الـرئيس السادات ، وفى ضـوء ما مـر بالـوطن العربى والشرق الأوسط والعـالم من أحـداث جسام ، فـانـه من المناسب إعـادة تنـاول كل من هـذه التوجهـات لتقييمه .

* الانفتاح الاقتصادى

كـان واضحـاً لأبناء جيلى ممن نشأوا فى ظـل إقتصاد اشتراكى مـوجـه ، يهدف إلى التنميـة الشـاملـة والعـدالــة الاجتماعيـة ، إن سيـاسـة الانفتـاح الاقتصادى التى أعلنهـا الرئيس بـاصدار القانـون ٤٣ لعام ١٩٧٤ ، هى أن هذه السيـاسة ستخل بـالهدفين المذكورين . وضـاعف من هـذا الشعور أن البدايات المبكرة لسياسة الانفتاح قد ارتبطت بعودة ظهور شخصيات وفئات من النظام القديم السـابق على ثورة يوليو . كما اطلقت هذه البـدايات لقوى طفيلية عديدة العنان للثراء الفاحش والسريع .

كما أنه رغم انهيال المسـاعدات الاقتصادية العربيـة والدولية على مصر ،

ورغم ارتفاع معدل تحويلات المصريين العاملين فى الخارج (بعد الطفرة النفطية التى جاءت مع حرب أكتوبر ١٩٧٣) ، إلا أن الأوضاع المعيشية لمعظم المصريين كانت تشتد صعوبة ، وكانت مؤشرات التضخم فى إرتفاع مستمر ، وحجم المديونية الخارجية لمصر فى تعاظم مضطرد . وقد تجلت الآثار السلبية لسياسة الانفتاح الاقتصادى بشكل درامى فى المظاهرات العنيفة التى انفجرت فى كل المدن المصرية الرئيسية من الاسكندرية إلى أسوان فى يناير ١٩٧٧ .

وليس هنا مجال التقييم التفصيلى لسياسة الانفتاح الاقتصادى ، التى كنا قد عارضناها لعدة سنوات . ولكن هنا تقييم التوجه نفسه . فقد أثبتت الأحداث فى العالم كله خلال السنوات الخمسة عشر التى تلت أخذ مصر «بالانفتاح الاقتصادى» انه كان توجها صائباً . فالكتلة الشرقية ، وفى مقدمتها الاتحاد السوفيتى ، التى بدأت فيها فلسفة الاقتصاد الاشتراكى الموجه ، قد نبذت هذه الفلسفة ، وما انطوت عليه من سياسات وممارسات تأخذ «باقتصاديات السوق» . وكون الرئيس السادات كان من أول قادة العالم الثالث الاشتراكى الذين بادروا بسياسة الانفتاح والتحول إلى اقتصاديات السوق يعنى أنه كان سباقاً إلى اكتشاف عيوب الاقتصاد الموجه ، أو إقتصاد الأوامر (Command Economy) ، الذى يعتمد على القطاع العام ، ويقلص أو يحارب القطاع الخاص ، على اعتبار أن الأخير يمثل قوة إستغلالية أو طفيلية .

وما فعله السادات فى هذا الصدد لم يكن تخلياً أو تصفية للقطاع العام ، ولكنه انطوى على تشجيع القطاع الخاص ، ورد الاعتبار إليه . أى أنه سمح للقطاعين العام والخاص أن يتعايشا جنباً إلى جنب ، وأن يتلقيا نفس التشجيع من الدولة ، على أمل أن يتنافسا تنافساً إيجابياً ، يؤدى إلى تنشيط الاقتصاد الوطنى من ناحية ، وإلى إجتذاب مزيد من الاستثمارات العربية

والأجنبية من ناحية ثانية ، وجلب التكنولوجيا المتقدمة من ناحية ثالثة ، وإدخال الادارة الحديثة لمؤسسات الانتاج والخدمات المصرية من ناحية رابعة. وهذه الاعتبارات الأربعة هى نفسها التى رددها فيها بعد زعماء بلدان الاقتصاد الاشتراكى الموجه حينها قرروا ما يسمى الآن «بتحرير الاقتصاد» أو الانتقال من القطاع العام إلى القطاع الخاص (الخوصصة Privatization) .

بهذا المعنى كان السادات سابقاً وسباقاً بين زعماء العالمين الثانى والثالث. ولكن هل كان ذلك يعنى أن أخذ مصر بسياسة التخطيط وإنشاء قطاع عام كبير ورائد وقائد فى الاقتصاد المصرى فى الخمسينيات والستينيات هو سياسة خاطئة ؟ .

والإجابة فى رأينا هى بالنفى . فقد حقق الاقتصاد المخطط والقطاع العام لمصر فوائد جمة . وبفضل هذه السياسة تم احداث تحولات عميقة فى بنية الاقتصاد والمجتمع المصرى . فما كان ممكنا بغير هذه السياسة ، مثلاً ، بناء صناعة ثقيلة ، أو تشييد السد العالى ، أو كهربة الريف المصرى ، أو استصلاح حوالى مليون فدان من الأراضى الزراعية الجديدة ، ناهيك عن التوسع الهائل فى التعليم والخدمات . وكانت القاعدة الصناعية المصرية والقطاع العام إجمالاً هما اللذان مكنا مصر من إمتصاص صدمة هزيمة ١٩٦٧ والاستعداد لحرب أكتوبر المجيدة عام ١٩٧٣ .

ولكن كما ثبت فى أنحاء عديدة من العالم ، فإن الاقتصاد المركزى المخطط قد يكون ضرورياً ومفيداً فى مرحلة معينة من مراحل التطور الاقتصادى - الاجتماعى ، وليس فى مرحلة تالية . والمرحلة التى يكون فيها هذا النوع من الاقتصاد مفيداً هى بالتحديد مرحلة تشييد بنية أساسية حديثة ، وصناعات ثقيلة ومتوسطة ، وتحديث الطاقة البشرية الملائمة لتشغيل هذه البنية وتلك الصناعات . ولكن بعد تلك المرحلة إذا استمر الأخذ بسياسات الاقتصاد المركزى المخطط ، حيث ينتفى عنصر الضرورة ويتناقص عنصر الفائدة ،

فإن الاقتصاد والمجتمع يبدآن فى الترهل والتكلس والجمود . وهذا هو ما حدث بالفعل فى الاتحاد السوفييتى والصين ودول أوروبا الشرقية منذ منتصف الستينيات . وكانت الصين هى الأسبق لادراك ذلك منذ عام ١٩٧٧ ، أي بعد مصر بثلاث سنوات . وتأخر هذا الادراك فى الاتحاد السوفييتى وأوروبا الشرقية الى منتصف الثمانينيات ـ أى بعد مصر الساداتية بأكثر من عشر سنوات .

ولا يعني الأخذ بسياسة الانفتاح واقتصاد السوق ، إن هذه السياسة تحقق دائماً كل المرجو منها ، أو أنها تفعل ذلك دون ثمن اجتماعى ــ نفسى كبير . وفى مصر تحديداً ، كان هناك ثمن اقتصادي فادح ، وهو زيادة المديونية الخارجية ، التى ارتفعت من ٣,١ مليار دولار عام ١٩٧٠ (حينما تولى السادات مقاليد الحكم) إلى حوالى ٢٤ مليار دولار حينما ترك الحكم والحياة عام ١٩٨١ . كذلك انطوت هذه السياسة على زيادة معدلات التضخم الذى كان فى حدود ٧ فى المائة سنوياً عام ١٩٧٠ ووصل إلى حوالى ٢٥ فى المائة سنوياً عام ١٩٨١ . كما تدهورت قيمة العملة المصرية من (دولارين للجنيه الواحد إلى جنيهين للدولار الواحد خلال نفس المدة (١٩٧٠ ــ ١٩٨١) . وهذه المؤشرات الثلاثة وحدها تعنى أن الفئات الاقل حظاً هى التى تحملت القسط الأكبر من أعباء سياسة الانفتاح الاقتصادى . وقد كان ذلك وراء انفجار الانتفاضة الشعبية لفقراء المدن المصرية فى يناير ١٩٧٧ .

وكان يمكن أن تكون الآثار السلبية لسياسة الانفتاح الاقتصادى أسوأ من ذلك بكثير ، لولا أنها تزامنت مع الطفرة النفطية فى أقطار عربية شقيقة . فقد أدت هذه الطفرة بين عامى ١٩٧٣ و١٩٨٣ إلى ارتفاع فلكى فى الموارد المالية للدول النفطية ، وبالتالى لأخذها بخطط تنموية طموحة ، احتاجت إلى استيراد عمالة من الخارج . وكانت مصر هى أحد المصادر الرئيسية لهذه

العمالة ، وهـو الأمر الـذى خفف من حدة البطـالة فى الـداخل المصرى من ناحية ، وإلى زيادة تحويلات المصريين العاملين فى الخارج إلى مصر من ناحية ثـانية . كـذلك سـاعد فى تخفيف وطـأة سياسـة الانفتـاح الاقتصادى تـدفق المساعدات المالية الأجنبية والعـربية إلى مصر ، والتى بلغت خلال السنوات السبع التاليـة للانفتـاح وإلى اغتيال الـرئيس السادات إلى حـوالى أربعة عشر مليار دولار .

ومع كل سلبيات سياسـة الانفتاح الاقتصادى ، الفعلى منها والمحتمل ، إلا أنه قد ثبت أن التوجه نفسه كـان صائباً . ولابد أن يحسب ذلك للسادات وليس عليه .

أما بعض مـا شاب هـذه السياسة من ممـارسات ، فـلابد أن يحسب على السـادات . ونقصد بـذلك تحديداً انتشـار السلوك الطفيلى ، وزيـادة حجم الفساد . ولم يكن أقارب السادات ومعاونـوه بعيدون عن هذه الممارسات . وكان أبلغ دليل على ذلك ما كشفت عنه محاكمة السيد/ عصمت السادات ، بعد عام من اغتيال الرئيس . وكشفـت محاكمات مماثلة لبعض من قربهم إليه (مثل رشـاد عثمان وتـوفيق عبد الحي) عن ممـارسـات ممـاثلة . وقـد أدانهم القضاء جميعاً .

كما أثبتت الباحثـة ساميـة سعيد (*) أن النخبـة التى قـادت الانفتـاح ، وكونت معظم الشركات الخاصة الجديدة ، كـانت من أقرب الناس إلى نظام الرئيس أنـور السادات ، وأنهم اعتمـدوا فى تكوين هـذه الشركات على المال العام . أى أن قسطـاً لا يستهان به من أمـوال الشعب قد تم نقله بـوسيلة أو بأخرى إلى ملكية خاصة ، دون مقابل يذكر .

وقد نتج عن هـذه الممارسات ، التى صاحبت سياسـة الانفتاح ، ظهور ثراء فاحش على فئة محدودة من المصريين . واندفـع أفراد هذه الفئة بدورهم

(*) سامية سعيد : من يملك مصر : دراسة تحليلية للأصول الاجتماعية لنخبة الانفتاح . القاهرة : دار المستقبل العربى ، ١٩٨٦ .

إلى الاستهلاك الكمالى والبذخى إلى درجة استفزت مشاعر كثير من المصريين، وخاصة فقراء المدن . وكان هذا العامل النفسى ، إلى جانب أسباب موضوعية اشرنا إليها سلفا (مثل التضخم) ، أحد أسباب الانفجار الشعبى فى يناير ١٩٧٧ .

بالطبع لم يكن محتما أن تصاحب هذا التوجه الانفتاحى الاقتصادى الجديد، تلك الممارسات الطفيلية أو الفاسدة . ولكن ذلك هو ما حدث . ومن هنا فإننا نخلص إلى أن الانفتاح الاقتصادى كان ضمن التوجهات الصائبة للحقبة الساداتية ، ولكن بعض الممارسات التى صاحبته كانت فاسدة .

*** بدايات ديموقراطية ونهايات استبدادية**

كان التوجه الرئيسى الثانى على الجبهة الداخلية للحقبة الساداتية ، هو بداية التحول الديموقراطى . فما يسمى «بورقة اكتوبر» التى أعدت فى أعقاب حرب ١٩٧٣ كانت قد بشرت بالديموقراطية كنهج للنظام السياسى . وبالفعل بدأ الرئيس السادات بتخفيف قبضة التنظيم السياسى الواحد ، وهو **«الاتحاد الاشتراكى»** على الحياة السياسية العامة . ومع نهاية عام ١٩٧٥ ، ابتدع السادات ما سمى فى حينه **«بتعددية المنابر السياسية»** داخل الاتحاد الاشتراكى . وسرعان ما تحولت هذه المنابر إلى **«أحزاب سياسية»** تنافست فيما بينها فى الانتخابات النيابية عام ١٩٧٦ . ورغم أن منبر الوسط ، الذى أصبح حزب الرئيس السادات وسمى **«بحزب مصر»** ، قد فاز بأكثر من أغلبية ثلثى مقاعد مجلس الشعب ، إلا أن فوز حزب اليسار **(التجمع)** بعدة مقاعد ، كان مؤشرا رسمياً وفعلياً لعودة **«التعددية السياسية الحزبية»** إلى مصر بعد غياب قارب ربع قرن (أى منذ حلت الأحزاب السياسية بعد ثورة يوليو) .

وشهدت الأعوام الثلاثة التالية (١٩٧٦ ــ ١٩٧٨) نشاطاً سياسياً تعددياً ملحوظاً . وكان واضحاً أن الساحة المصرية كانت مهيئة لهذه البداية الديموقراطية المتواضعة ، وأنها عطشى للمزيد منها . ولكن تدافع الأحداث الداخلية والاقليمية جعلت الرئيس السادات يضيق تدريجياً بالتجربة الديموقراطية الوليدة . فالأحزاب المعارضة التى ظهرت مع انتخابات ١٩٧٦ والأحزاب الجديدة التى نشأت بعد هذه الانتخابات ، وهى حزبى العمل الاشتراكى والوفد الجديد ، اخذت الأمور مأخذ الجد ؛ وبدأت توجه الانتقادات الحادة لسياسات وممارسات النظام فى صحفها وإجتماعاتها الحزبية . ولأن ذلك تزامن مع زيارة السادات لاسرائيل (نوفمبر ١٩٧٧) وسعيه الحثيث إلى تسوية معها ، فقد أستأثر ذلك بنقد حاد من معظم هذه الأحزاب ، ناهيك عن نقدها لسياساته الأخرى ، وخاصة سياسة الانفتاح الاقتصادى وما صاحبها من ممارسات طفيلية ، على نحو ما ذكرنا من قبل .

لذلك نجد الرئيس السادات منذ نهاية ١٩٧٧ وبداية ١٩٧٨ يصدر مجموعة من القوانين المقيدة للحريات العامة ، ومنها «قانون العيب» الذى يعطى السلطة التنفيذية حق اتهام ومحاكمة من يتجاوزون بالقول أو السلوك فى مسائل تعتبر من «مقدسات المجتمع وقيمه الأصيلة» ، وكانت فضفاضية تعريف «العيب» وتشكيل المحكمة من غير «قضاه طبيعيين» (شخصيات عامة غير قضائية) مصدراً لتشكك مشروع ، بأن المقصود بهذا القانون هو ملاحقة المعارضين والمناوئين لنظام الرئيس السادات .

ثم اعقب ذلك سلسلة من الاستفتاءات على تغييرات دستورية فحواها ومقصدها هو مزيد من تقييد الحريات العامة فى التعبير والتنظيم ، ومن ذلك «تحريم إنشاء أحزاب تعارض مسيرة السلام مع إسرائيل» ، وإن كان هذا لم ينطبق على الأحزاب التى كانت قائمة بالفعل . وتحريم العمل السياسى

العام على شخصيات شاركت فى الحكم قبل ثورة يوليو وصدرت ضدها أحكام من المحاكم الثورية . . . وما إلى ذلك مما لا يسمح المجال بتفصيله .

وكلما كانت المعارضة تشتد ضد سياسات وممارسات النظام ، حتى لو كانت سلمية وفى إطار القانون ، كلما اشتد ضيق الرئيس السادات بها ، وتفننه فى إصدار قوانين جديدة تعطى السلطة التنفيذية (وهو على رأسها) القدرة على تضييق الخناق على المعارضين ؛ حتى انه صرح مرة بأنه «سيفرم **هؤلاء بالقانون**»! وكان فحوى ذلك أنه مستمر فى الالتزام الشكلى «بالانفتاح الديمقراطى وسيادة القانون» ، ولكنه يطوع هذا الأخير ليسمح له بممارسات فعلية تقوض روح الديموقراطية أو تخنقها تماماً . ثم فاق هذه الممارسات بالتلاعب بالانتخابات النيابية التالية ، حيث لم يفز فيها أى من المعارضين لسياساته ، وخاصة لاتفاقيتى كامب دافيد (١٩٧٨) .

وخلال السنوات الثلاث الأخيرة من حكمه ، لم يتبق من ديموقراطية السادات ، المتواضعة أصلاً ، إلا اسمها . ثم تدهور هذا الوضع أكثر فأكثر خلال السنة الأخيرة من حكم الرئيس السادات . وتوترت الأوضاع الداخلية إلى درجة المواجهات الدموية المسلحة ، سواء بين بعض الفصائل المعارضة والدولة ، وخاصة الجماعات الإسلامية المتطرفة ، أو بين هذه الأخيرة وأبناء الطائفة المسيحية القبطية ، ووصلت ذروتها فى أحداث حى «الزاوية الحمراء» بالقاهرة فى صيف عام ١٩٨١ .

وانتهز الرئيس السادات فرصة وقوع الأحداث الطائفية فى «الزاوية الحمراء» ليسوى كل حساباته مع كل فصائل المعارضين المصريين لكل سياساته بضربة واحدة فى الأسبوع الأول من سبتمبر ١٩٨١ . فرغم أن تلك الأحداث الطائفية هى «المبرر المباشر» ، إلا أنه لم يقصر ضربته على الجماعات الدينية المتطرفة من مسلمين ومسيحيين ، مثلاً . وإنما وسع نطاق هذه الضربة لتشمل كل المعارضين ـــ العلمانيين منهم وغير العلمانيين ،

اليساريين منهم واليمينيين ، الناصريين منهم والليبراليين ، النساء منهم والرجال ، الشباب منهم والكهول والشيوخ . وباختصار ، بين يومى ٣ و ٥ سبتمبر أمر الرئيس السادات بالقبض على واعتقال حوالى ألفى شخصية مصرية من هؤلاء جميعاً ، دون توجيه تهم محددة إليهم ، ودون الإعلان عن موعد لمحاكمتهم . واكتفت البيانات الرسمية فى هذا الصدد ، بأن هؤلاء الأشخاص باتوا يهددون «الوحدة الوطنية» ، ويمثلون خطراً داهماً على منجزات **«ثورة التصحيح»** (مايو ١٩٧١) **«واكتوبر المجيدة»** (١٩٧٣) ، **و«مسيرة السلام»** (١٩٧٧ ـ ١٩٨٠) .

وكان هذا الاجراء الشامل باعتقال كل رموز الحركة السياسية المصرية (من غير أعضاء النخبة الحاكمة نفسها) بمثابة إسقاط «ورقة التوت» الأخيرة لديموقراطية الرئيس السادات ، لتكشف عن عورات نظام ما يزال أسير النزعات الاستبدادية ، رغم محاولاته أو تشدقه اللفظى «بالديموقراطية» .

ولم يمر أكثر من شهر على هذه الاجراءات القمعية الصارخة ، إلا وقد طالت الرئيس أنور السادات رصاصات الاغتيال ظهر السادس من أكتوبر ١٩٨١ ، وسط الاستعراض العسكرى الكبير بذكرى انتصاره قبل ذلك بثمان سنوات . وانتهت حقبة حكمه الحافلة نهاية مأساوية حزينة .

ومرة أخرى فى تقويم هذا التوجه ، لابد أن يحسب للسادات أنه بدأ التحول الديموقراطى ؛ وانه بذلك سبق بلداناً كثيرة فى العالم الثالث والعالم الثانى ، تسابقت بعد ذلك بعدة سنوات للأخذ بنفس النهج . ولكن مرة أخرى ، كان هذا المنحى الديموقراطى ضمن توجهاته الصائبة ، ولكن ما صاحب هذا التوجه وخاصة فى السنوات الأخيرة لحكم السادات من سلوكيات كان من أبرز ممارساته الخائبة . وقد دفع الرجل بسببها ثمناً فادحاً، هو حياته نفسها .

* التحالف مع الغرب

أمـــا التوجــه الرئيسى الثـــالث لأنور الســـادات ، والـــذى مثـــل إتجــاهاً مضـــاداً تماماً لســـلفه الرئيس عبـــد الناصر ، فقـــد كان سياستـــه فى التحـــالف الاســـتراتيجى مـــع الغـــرب ، وخاصـــة الولايـــات المتحـــدة .

وقد بـدأ هذا التحول على مـراحل . كانت المرحلة الأولى فيـه بين عامى ١٩٧١ و١٩٧٢ ، وتجسمت فى تصفيـة العلاقـات الكثيفـة مع حليف مصر الـدولى فى العقدين الســابقين ، وهو الاتحاد الســوفييتى والكتلة الشرقيـة . ووصلت العلاقات المصريـة السوفيتية إلى أدنى مستويـاتها حينما أمر الرئيس الســادات فى منتصف عـام ١٩٧٢ بطـرد حـوالى ٢٥,٠٠٠ خبير عسكـرى ســوفييتى من مصر . وقـد استغل الســادات فى اتخاذ هـذا القـرار الـدرامى شعور الاحباط المتزايد فى القوات المسلحـة المصرية بسبب الضآلة النسبية فى كمية ونوعية السلاح السوفييتى المسموح لها به مقارنة بما كانت أمريكا تغدقه على إسرائيل . كـذلك تمت فى هـذه المرحلـة تقـويـة العـلاقـات المصريـة ـ السعـوديـة . ولعبت هذه الأخيرة دوراً مستتراً (كشف عنـه فيما بعـد) فى تشجيع الســادات على قـرار تخلـص مصر من الخبراء الســوفييت . ولم يكن الســادات فى الـواقع يخفى تبرمـــه ببطئ الاتحادالســوفييتى فى إتخاذ القـرار ، وتشككه فى نواياه تجاه مصر .

أما المرحلـة الثانية فى تحول السادات من التحـالف مع الاتحاد السوفيتى إلى التحالف مع الغرب فقد كانت فى أعقاب حرب أكتوبر ١٩٧٣ مباشرة ، ومع وقف إطلاق النـار ولقائه بـوزير الخارجيـة الأمريكى هنرى كيسنجـر آنذاك . وفى هذه المرحلة رحب الرئيـس السادات بكل المبادرات الأمريكية «لفض الاشتباك» على الجبهة المصرية ـ الاسرائيليـة . واكتملت هذه المرحلة أو توجت بزيـارة الرئيس الامريكى رتشارد نيكسون إلى مصر والسعوديـة

وإسرائيل فى ربيع ١٩٧٤ . وعلى أثرهــا بـدأت المسـاعـدات الامــريكيـة الاقتصادية فى تدفقها على مصر .

ثم جاءت المرحلة الثالثة مع انتخاب جيمى كارتر رئيساً جديداً للولايات المتحدة فى نوفمبر ١٩٧٦ . ففى غضون عام واحـد كان السادات قد أصبح مستعداً ومروجاً لمقـولة إن «٩٩٪ من أوراق اللعبة فى صراع الشرق الأوسط هى فى يد الولايات المتحدة» ، فـرمى بكل «بيضه فى السلة الأمريكية» . ولما أشار عليـه كارتـر فى سبتمبر ١٩٧٧ بضرورة القيام بخطـوة درامية حـاسمة لكسر الجمود فى عملية تسويـة الصراع العربى الإسرائيلى ، تلقف السادات ذلك وتـرجمه إلى مبادرتـه بزيارة إسرائيـل ، فى نوفمبر ١٩٧٧ ، وهـو الأمر الذى سنتحدث عنه فى فقرة تالية .

المهم أنه فى عهـد الرئيس كـارتر تضاعف حجم المسـاعدات الأمـريكية لتصل إلى حجمها الذى استقر فى السنوات التـالية عند حوالى مليارى دولار أمـريكى سنويـا . وأكثر من المسـاعدات ، لم يكن السـادات يخفى إعجابـه الشديـد بالنموذج الأمريكى فى الاقتصـاد والاجتماع والسياسة . وقد بـادله كارتـر والرأى العـام الأمريكى والغـربى هذا الاعجـاب بإعجاب ممـاثل . وبـدأت العلاقـات تتشعب وتتكثف بين الجانبين فى كل المجـالات تقريبـاً . وفتحت مصر أبوابها واسعـة لكل ما هـو أمريكى خصوصـاً وما هـو غربى عموماً . وقد جاء وقت فى نهاية السبعينيات أصبحت فيه «شعبية» السادات فى الغرب تماثل أو تفوق أكثر زعماء الغرب ، وأصبحت مصر فعلياً ، وإن لم يكن رسمياً بالضرورة ، حليفاً استراتيجياً مخلصاً للغرب .

والسؤال الـذى يثور فى هذا الصدد هـو ما إذا كان هذا التـوجه الخارجى للـرئيس الـراحل فى التحـالف مع الغـرب ، بدلاً مـن الشرق ، هو تـوجـه صائب؟ .

والاجـابة هى أنـه لعـدة سنـوات اعتقد الكثير من المصريين والعـرب ،

ومنهم هـذا الكـاتب ، أنـه تـوجه خـاطئ ، وينطـوى على لهفـة غير مبررة للتصادق مـع معسكر نـاصب العرب العـداء تاريخياً ، فضـلاً عن أنـه كان الحليف القـوى لأعـدى أعـداء العـرب ، وهـو اسرائيل . كما أن كثيرين ، ومنهم هـذا الكاتب ، قـد فـزعوا لما رأوا فيـه تفريطـاً فى استقـلالية القـرار الـوطنـى المصرى ، ومـا ينطـوى عليـه ذلك من «تبعية» صارخة لأمـريكا والغـرب ، وتنازلاً عـن سياسـة «عدم الانحياز» التى كـانت قـد استقـرت وتعمقت فى الـوجـدان المصرى والعـربى منذ مـؤتمر بـانـدونج (١٩٥٥) . وأخيراً فإن معظمنـا رأوا فى نموذج التنميـة والمسـاعـدات الأمريكيـة لمصر تشويها لبنية المجتمع والاقتصاد فى مصر .

ولكن بمرور السنوات ، يبدو الآن أن الرئيس السادات كان على حق فى نفوره من النموذج السوفييتى . فقد رأى قبل أن يرى الكثيرون من المصريين والعرب الآفات الداخليـة التى تنخر فى هياكل الاتحاد السوفييتى . وخلص إلى أن الاتحاد السوفييتى قـد يكون «قـوة أعظم» عسكريـاً ، ولكنه فى معظم شئـون الحياة الأخـرى هو قـوة من «الدرجة الثانية» أو حتـى مـن «الدرجة الثالثة» . ويذكر هذا الكاتب عبارات السادات فى هذا الصدد أثناء مقابلته له فى ٣١/ ٨/ ١٩٨١ ، والتى لم يصدقها الكاتب فى حينها ، ولكنه بدأ يتذكرها عنـدمـا سمعهـا بنفسـه من السـوفييت أنفسهم فى أول زيـارة لـه إلى الاتحاد السوفييتى عام ١٩٨٩ .

ويقـدر نفـور الرئيس السـادات من النمـوذج السـوفييتى بقدر مـا كـان إعجابـه ، بالنمـوذج الغربى . وقد أثبتت السنـوات العشر التاليـة لاغتيال السادات أنه كان على حق . فقد كفر معظم السوفييت بنموذجهم . ولفظت الدول التى أخـذت به ، أو فـرض عليها ، هذا النمـوذج عند أول فـرصة مواتيـة . ومع كتابـة هذه السطـور (ديسمبر ١٩٩١) فإن الاتحاد السوفييتى أصبح أثراً بعد عين . فقد تفكك تماماً ، وبسرعـة لم يكن يصدقها حتى أكثر

المراقبين خبرة بالشئون السوفييتية منذ سنة واحدة . والغريب هو أن انهيار هذه القوة الأعظم تم دون إطلاق رصاصة واحدة عبر حدوده من أى عدو خارجى. لقد كان الانهيار إنهياراً من الداخل ، كأن البناء السوفييتى كان «بيتاً من ورق» .

كان الرئيس السادات ، إذن ، محقاً فى فض العلاقة الحميمة بين مصر والاتحاد السوفييتى ، وفى البحث عن حليف دولى بديل ، إن كان هناك ضرورة لمثل هذا الحليف . ولم يكن هناك من بديل سوى الغرب ، بقيادة الولايات المتحدة ، فى ذلك الوقت . بل إن هذا البديل هو نفسه الذى ستتجه أو تندفع له الجمهوريات السوفييتية السابقة ، وأولها أكبر هذه الجمهوريات وهى روسيا ، سعياً للاعتراف والحصول على الغذاء والتكنولوجيا المتطورة ورؤوس الأموال وفن الادارة الحديثة . بتعبير آخر ما فعله السادات ، بدأ من عام ١٩٧٤ ، هو ما فعلته روسيا وأخواتها عام ١٩٩١ ، أى بعده بسبعة عشر عاماً .

وسواء كان البعض منا يحب أمريكا أو يكرهها ، إلا أن العلاقات الدولية لا تبنى على الحب أو الكراهية ، ولكنها تبنى على «المصالح» . وكما قال ونستون تشرشل فى تفسير تحالفه مع الاتحاد السوفييتى أثناء الحرب العالمية الثانية ضد ألمانيا النازية «ليس لبريطانيا أصدقاء أبديون أو أعداء أبديون ، وإنما لبريطانيا مصالح أبدية» . وبهذا المعنى يمكن النظر إلى تحالف مصر الناصرية مع الاتحاد السوفييتى فى الخمسينيات والستينيات ، حينما كان ذلك يخدم المصالح المصرية . وبنفس المعنى يمكن النظر إلى تحالف مصر الساداتية مع الغرب والولايات المتحدة منذ السبعينيات ، على أساس أن ذلك يخدم مصالحها . فلم يكن لدى المصريين «حب أصيل» لشيوعية الاتحاد السوفييتى حين تحالف عبد الناصر معه . ويمكن القول أيضاً إنه لم يكن ، وربما لن يكون ، لدى المصريين «حب

أصيل» لرأسمالية الولايات المتحدة أو اسلوب حياة مجتمعها ، حين تحالف السادات معها .

ولكن هل خدم هذا التحالف المصرى ــ الأمريكى ، الذى بدأه السادات ، «المصالح المصرية» ؟ .

ربما سيظل المصريون مختلفون فى اجابتهم على هذا السؤال ، باختلاف مواقعهم ومصالحهم «الطبقية» أو «الفئوية» . ولكن الشاهد هو أنه بفضل هذا التحالف حققت مصر انجازين كبيرين على الأقل . الأول ، هو تحرير بقية سيناء المحتلة دون حرب أخرى . والثانى ، هو الحصول على حوالى ثلاثين مليار دولار من المساعدات الأمريكية الاقتصادية والعسكرية بين عامين ١٩٧٤ و١٩٩١ .

طبعاً يمكن الرد على هذا القول بأن مصر قد دفعت ثمناً باهظاً مقابل هذين الانجازين . وبالقطع بدا الثمن كبيراً فى حينه . ولكن بعد سبعة عشر عاماً ، يشاهد المراقب المحايد دولاً عربية أخرى تتلهف على انجازين مشابهين أو حتى أقل منهما ، مع استعداد لدفع ثمن أكبر .

وأخيراً لابد من توجيه السؤال : بصرف النظر عن المقابل الذى دفعته مصر لقاء هذين الانجازين الكبيرين . . هل أحسنت مصر توظيفهما كما ينبغى ؟ .

وهنا يختلف شرفاء المصريين ، إختلافاً مشروعاً . فحتى لو كانت الاجابة هى بالنفى ، فإن مسئولية عدم التوظيف الأمثل لهذين الانجازين كانت وستبقى مسئولية النخبة المصرية الحاكمة .

* المصالحة مع إسرائيل

ربما كانت سياسة الرئيس السادات فى التصالح مع إسرائيل هى أكثر سياساته مصدراً لخلاف الكثيرين معه ، أو غضباً منه ، أو نقمة عليه ، من

العرب والمصريين على السواء .

كان أحد أسباب ذلك ، بالطبع ، هو أن اسرائيل فى الوجدان والعقل العربيين هى أعدى الأعداء ، وأكثرهم غدراً وخطراً ، على حاضرهم ومستقبلهم . هكذا تعلم العرب جميعاً على مدى أربعين سنة . . . وهكذا كانت تؤكد الشواهد كلها ـ منذ اقتلاع الشعب الفلسطينى من أرضه وتشريده عام ١٩٤٨ ، مروراً بحروب إسرائيل التوسعية ، واحتلالها لأراضى أربع دول عربية عام ١٩٦٧ ، إلى تنكيلها اليومى بالفلسطينيين تحت الاحتلال . وليس هنا مجال تفصيل أسباب هذه العداوة المتجذرة نحو الكيان الصهيونى (*) .

ولا يقل عن ذلك سببا للخلاف والغضب والنقمة ، صدمة المفاجأة التى فجرها الرئيس السادات ، دون توقع ، من على منبر مجلس الشعب المصرى ، حينما أعلن عن استعداده للذهاب إلى إسرائيل ، سعياً وراء السلام ، فى نوفمبر ١٩٧٧ .

ولكن المدقق لمسيرة السادات حتى أكتوبر ١٩٧٣ ، وتبلور سياسته الخارجية وتحوله من التحالف المصرى ـ السوفييتى إلى تحالف مصرى ـ أمريكى ، ما كان له أن يفاجأ بهذه الخطوة الدرامية الجسورة ، والتى أكمل بها الركن الرابع من مشروعه السياسى للدولة المصرية . أى أن سياسة المصالحة مع أسرائيل كانت إمتداداً لتوجهاته الثلاثة الأخرى ، التى أشرنا إليها أعلاه . فلم يكن منطقياً أو ممكناً ، مثلاً ، أن يتقارب السادات إلى امريكا ويوثق تحالفه معها ، وفى نفس الوقت يظل على عداوته بإسرائيل ،

(*) هناك آلاف الكتب العربية التى تعرضت لكل جوانب الصراع العربى ـ الاسرائيلى ، ومنها واحد لهذا الكاتب ، انظر سعد الدين ابراهيم «سوسيولوجية الصراع العربى الإسرائيلى» ، بيروت : دار الطليعة ، ١٩٧٢ .

التى هـى الطفل المدلل لأمـريكا . ومـا كان للتحـالف مع أمـريكا أن يبـدأ ويستمر ويتكرس، ويؤدى إلى تدفق المسـاعدات الاقتصادية ، إلا إذا سبقه أو رافقه تحرير الاقتصاد المصرى من السطوة الكاملـة للدولة ـ أى أن سياسة الانفتـاح الاقتصـادى ، كـانت شرطـاً من شروط التحـالف المصرى ـ الأمـريكى. وما كـان لسياسـة الانفتاح الاقتصادى أن تستمـر بلا إنفتـاح سياسى ديموقراطى ، ولو بشكل جزئى أو صورى .

وهكذا كانت سياسة السـادات التصالحية مع إسرائيل هى الركن الرابع والمكمل لمشروعـه ، الذى شيـده بحـذق خلال السنـوات السبع التى تلت حرب أكتوبـر ١٩٧٣ ، والذى يمثل بديلاً للمشروع الناصرى لثـورة يوليو ١٩٥٢ .

والسؤال هو : هل كان السادات على صواب فى سياسته هذه نحو تسوية الصراع العربى الإسرائيلى ؟

والإجابـة هى أنه فى ضوء تداعيـات الأحداث الإقليمية والـدولية التى شهدناهـا خلال السنوات الأربع عشر ، منذ زيـارة السادات إلى إسرائيل ، يبدو أنه كان على حق فى توجهه العام .

لقد قـدمنا فى القسم الأول من هـذا الكتاب ، فى حـوارنا معـه ، وجهة نظره وتبريره لسياسته . ولن نعيد هنا مـا قاله فى هذا الصدد فى حينه ، وهو ما كـان هذا الكـاتب قد اختلف معـه علنا وكتـابة منـذ عام ١٩٧٤ (*) وما نكتفى به هنا هو إعادة الاعتبار لسياسة السادات فى هذا الصدد .

لقـد خلص الـرجل فى ذلك الـوقت المبكـر ، إلى أن معظم الصراعـات الممتدة، ومنها الصراع العربى ـ الاسرائيلى ، لا يمكـن حسمها نهائيا بالقوة

(*) انظر سعد الدين ابراهيم : كيسنجر وصراع الشرق الأوسط ، بيروت : دار الطليعة ، ١٩٧٤ وكـذلك : الانتخابـات الأمريكيـة والشـرق الأوسط، القـاهرة : مـركز الأهـرام للدراسات السياسية والاستراتيجية ، ١٩٧٦ .

المسلحة ، لأسباب عديدة ، منها وجود الاستقطاب الدولى بين الشرق والغرب ، والذى يجعل كلا من المعسكريين غير مستعد لقبول هزيمة قاصمة للطرف الذى يناصره . وبالنسبة للصراع العربى ــ الإسرائيلى ، كان السادات يرى أن أقصى ما تستطيع القوة المسلحة أن تفعله هو تحسين شروط التفاوض بالنسبة لأطرافه، وجذب ما يكفى من الاهتمام العالمى لمآزرة هذا التفاوض نحو تسوية سلمية .

بتعبير آخر رأى السادات ، قبل أن يرى كثيرون شرقاً وغرباً ، أن المفاوضات السلمية ، وليس المواجهات المسلحة ، هى الطريق الأمثل لتسوية الصراعات الممتدة فى عالم الربع الأخير من القرن العشرين . وبهذا المعنى ، كان الرئيس السادات محقاً فى نهجه العام . وهذا النهج نفسه هو ما أخذت به معظم ، أطراف صراعات مماثلة فى العالم كله ــ مثل نيكارجوا ، وجنوب افريقيا، وأنجولا ، وكمبوديا ، وكوريا ، والصين وبريطانيا حول هونج كونج، والمغرب والجزائر حول الصحراء ، وغيرها .

وأكثر من ذلك فان نهج السادات فى تسوية الصراع «بالمفاوضات بدلاً من المواجهات» هو ما خلص معظم العرب فى النهاية إلى صوابه ، وفى مقدمتهم منظمة التحرير الفلسطينية وسوريا ، أكثر الأطراف العربية تشدداً وإدانة لسياسة الرئيس السادات فى الماضى . بل إن المفارقة هنا هو أن إسرائيل هى التى أصبحت تحاول الالتفاف أو الافلات من مبدأ «المفاوضات»، وتفضيلها لمبدأ «المواجهات» . فقد اتضح لها انها «تكسب» فى مناخ المواجهات المسلحة ، و«تخسر» فى مناخ المفاوضات السلمية .

وصواب توجه السادات فى سياسته التصالحية مع إسرائيل ، لا يعنى إنه لم يرتكب عددا من الأخطاء التكتيكية . ومن ذلك أنه بدى متعجلا للاتفاق بسرعة ، واستغلت اسرائيل ذلك فى الحصول على تنازلات من مصر ، لم تكن مصر مضطرة لها . ومن ذلك انه لم يحصل من الولايات المتحدة أو

إسرائيل على الثمن الاقتصادى أو الثمن السياسى المناسب ، لقاء هذه التنازلات . فقد كان واردا ، مثلا ، أن يصر على أن تكون المساعدات الاقتصادية لمصر أكثر ، أو على الأقل مساوية لما تحصل عليه إسرائيل ، خاصة وأن سكان مصر هم أكثر من عشرة أمثال سكان إسرائيل . وبدلاً من ذلك فقد رضى بنصف حجم المساعدات التى تحصل عليها إسرائيل (٢ مليار مقابل ٤ مليار دولار سنويا) . كذلك كان يمكن أن يحصل من إسرائيل على ثمن سياسى أكبر مما حصلت عليه مصر فعلاً . فلو أصرت مصر وقت كامب دافيد على تجميد المستوطنات الإسرائيلية فى الأراضى المحتلة لوجدت عوناً لها فى ذلك من الرأى العام الأمريكى والعالمى . . . وهكذا .

كذلك لم يكن من الحكمة أن يمعن السادات فى التحقير من شأن العرب الذين اختلفوا معه ، وأن يشجع الشوفينية المصرية ، وأن يتباهى «بالأربعة ألف سنة حضارة» . . . وما إلى ذلك من استفزازات ، بدت طفولية أحياناً ، وغوغائية أحياناً أخرى .

ومع ذلك كله فإن التوجه الاستراتيجى للسادات فى تسوية الصراع العربى ـ الإسرائيلى كان فى مجمله توجهاً صائباً .

إذهب إلى فرعون إنه طغى ... وقل له قولاً لينا

كان الرئيس أنور السادات ، رحمه الله ، فى آخر أيامه مستفزاً للعرب أجمعين ، ومنهم المثقفين المصريين . ورحل الرجل عن عالمنا وهناك شبه قطيعة كاملة بينه وبينهم .

وويل لحاكم يقاطعه المثقفون أجمعين . فالمثقفون قد لا يكونوا بالتوحد والقوة التى تمكنهم من التأثير الكامل أو الآنى فى صناعة القرار فى بلادهم . ولكنهم دائماً من القوة بحيث يفوضون «شرعية» أى حاكم .

فبطبيعة حرفتهم فى الكتابة والكلام ، يستطيع المثقفون أن يؤثروا تأثيراً حاسماً فى الرأى العام ، حتى لو تم ذلك تدريجياً وببطئ شديد .

طبعاً يستطيع الحاكم أن يستوظف عدداً من المثقفين ويحيط نفسه بهم ، ويمكنهم من وسائل إعلامه ليروجوا له ولسياساته . ولكن هذا النوع من المثقفين عادة هم مثقفون من الدرجة الثانية أو الثالثة . لذلك تكون مصداقيتهم متدنية ، وتأثيرهم على الرأى العام محدوداً أو معدوماً . وقد أدرك الرئيس السادات ذلك تماماً ، ولكن فى أخريات أيامه فقط . ومن هنا الحاحه والحاح السيدة حرمه على إعادة بناء الجسور مع المثقفين العرب والمصريين ، على نحو ما أشرنا فى القسم الأول من هذا الكتاب .

وفى هذا الصدد كان الرئيس السادات مليئا بالمشاعر المتناقضة نحو المثقفين . فمن ناحية كان يشكو من عدم فهم المثقفين له . وفى نفس الوقت كان يعز عليه أن يقتطع وقتاً كافياً للحوار معهم لكى يشرح ويفسر لهم سياساته وممارساته .

وضمن شكاواه العديده من المثقفين، والتى سمعها هذا الكاتب، هو أن المثقفين لا يحسنون الحديث أو الحوار معه بالتهذيب الكافى ، وهو «رئيس الدولة أو كبير العائلة المصرية والعربية» . ومما كان يعتب به خصوصاً على المثقفين المصريين انهم لم يقرأوا القرآن الكريم جيداً . . . وإلا لوعوا أن الله سبحانه وتعالى بكل جلاله وعظمته كان يعمل حساباً خاصاً لحاكم مصر المهيب . . . ! ومما كان يردده السادات دائماً ان سبحانه جل جلاله قد أرسل الأنبياء والرسل لشعوب وأقوام وقبائل حول مصر . ولكنه لم يرسل أيا منهم إلى شعب مصر . وحينما أرسل أحد أنبيائه ، فقد كان ذلك لحاكم مصر وليس لشعبها . وحتى فى هذه الحالة النادرة فقد أعطى الله سبحانه وتعالى تعليمات واضحة صارمة لرسوله فى كيفية التخاطب المهذب مع حاكم مصر ، وتمثل ذلك فى قوله تعالى لموسى عليه السلام« . . . اذهب إلى فرعون

إنه طغى ، وقل له قولاً لينا . . . ». *

وكان الرئيس السادات يستغرب كيف تكون هذه هى التعليمات الألهية إلى موسى ، وهو من أقوى الأنبياء ، فى طريقة التخاطب والحوار مع «فرعون»، ثم يأتى المثقفون ويتحدثون معه أو عنه بلا تبجيل أو تهذيب .

ورحل الرئيس السادات عن عالمنا دون تفسير شاف لهذا السلوك من المثقفين. وربما كان التفسير هو أن السادات كان يعتقد أنه آخر الفراعنة . . . بينما لم يدرك المثقفون ذلك . . . وربما أدرك بعض المثقفين المعاصرين أن السادات ، بل وكل حاكم مصرى ، هو «فرعون» . . . ولكن ربما لم يعوا الآية الكريمة التى تأمرهم بأن يقولوا له «قولاً لينا» .

---

* صحة الآية «إذهبا إلى فرعون إنه طغى . فقولا له قولاً ليّنا لعله يتذكر أو يخشى» (سورة طه الآيتان : ٤٤ ، ٤٥)

الفهرس

القسم الثالث

السادات بعد عشر سنوات ما له وما عليه

رقم الإيداع : ١٩٩٣/١٩٩٢
I.S.B.N. 977 - 00 - 2872 - X

مطابع الشروق

القاهرة: ١٦ شارع جواد حسني ـ هاتف: ٣٩٣٤٥٧٨ ـ ٣٩٣٤٨١٤

بيروت: ص ب: ٨٠٦٤ ـ هاتف ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٧٦٥ ـ ٨١٧٢١٣

هو كتاب يقوم فيه الدكتور سعد الدين ابراهيم بإعادة تقييم الحقبة الساداتية وتوجهاتها وسياساتها .

ويعترف الكاتب بأنه كان من أشد المعارضين للرئيس السادات في حياته، وينشر هنا لأول مرة مضمون مقابلة طويلة وعاصفة تمت بينه وبين الرئيس الراحل قبل اغتياله بخمسة اسابيع فى استراحته بالإسكندرية وبحضور السيدة جيهان السادات وقد اختار الكاتب هذا التوقيت بمناسبة مرور عشر سنوات على اغتيال الرئيس السادات ، وتزامن هذه الذكرى مع أحداث اقليمية وعالمية جسيمة وقعت فى عام ١٩٩١ ، وغيرت من شكل النظام الدولى تماماً . ويذهب الكاتب إلى أن الرئيس السادات ربما كان من أول من استشرفوا ارهاصات هذه الأحداث ، وسبق غيره من القيادات بالاستعداد للتعامل معها . ورغم أن الكتاب ينصف السادات فى كثير من الأمور إلا أنه لا يبرئ ساحته تماماً من بعض الأخطاء . أو الخطايا الفادحة فى حق المصريين والعرب .